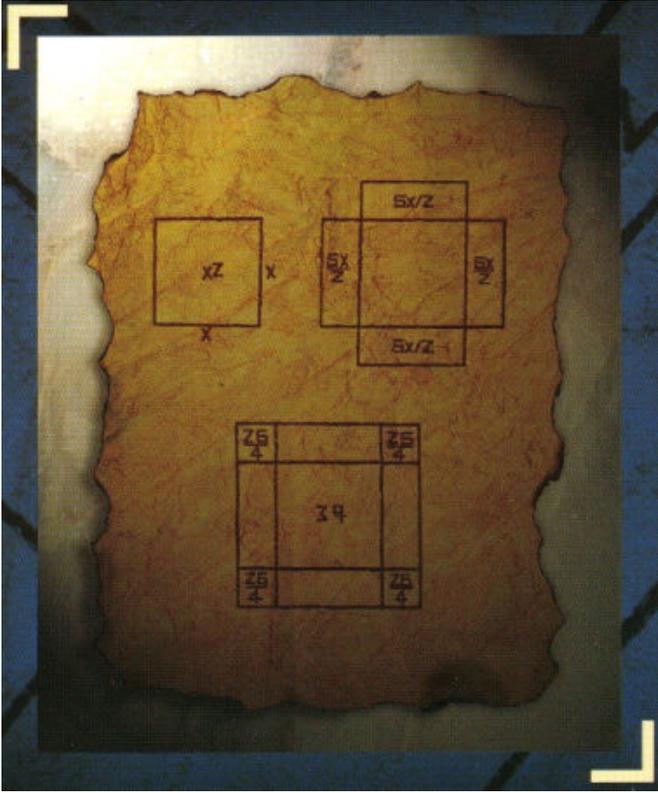


الشرق في عيون الغرب

د. ضغام الدباغ



برلين
2021

الشرق في عيون الغرب

د. ضرغام الدباغ

الطبعة الثانية

برلين / 2021



المركز العربي الألماني / برلين

الرقم: 65

المطبوع مجاني

صورتنا الخلافة : الأسطراب العربي : نظرية الخوارزمي في الرياضيات

فهرس المحتويات

1. مقدمة.....04
2. لقاء الحضارات. عربي / ألماني.....06
3. الشرق في عيون الغرب 1.....22
4. الشرق في عيون الغرب 2.....26
5. بعثة دبلوماسية بين بغداد وأخن.....29
7. مقدمة موسوعة تاريخ العرب.....36
6. ملاحظات في دراسة القرآن.....39
8. الحروب الصليبية.....52
9. الأنباء التاريخية المبكرة.....59
10. ازدهار العلوم والثقافة في العصر العباسي.....67
11. الثقافة العربية الإسلامية وأوربا.....72
12. التعبيرات الأيديولوجية للنضال المعادي للاستعمار. 78

أولاً : مقدمة

بين الشرق والغرب: هناك حروب ومناقشات، نعم، ولكن أيضاً مواجهات إنسانية، وتبادل ثقافي وتجاري ومعرفي وهو الأهم...! مما قد لا يتسع له دفتي كتاب واحد مهما بلغت سماكة هذا الكتاب ومهما بذل فيه صاحبه من جهد .

ترى هل هو مستحيل عمل كهذا ..؟

كلا ... لا يوجد مستحيل في عالم البحث والعلم. ولكن الأمر بتقديري أكبر من أن يستطيع فرد واحد مهما بلغ علو كعبه في العلم والمعرفة، إتمامه بطريقة لا عيب فيها ولا خطل. والأمر هنا لا يتعلق بكفاءة أي باحث أو عالم، بل هو ضرب من عمل موسوعي يساهم فيه التكنولوجي والفيزيائي والكميائي والفنان والعسكري وعلماء الآثار واللسانيات والأطباء والمهندسين والإنسانيين من علماء اقتصاد وسياسة وربما غيرهم على التعدد الواسع لأنشطة الحياة والفكر الذي دار لعشرات القرون، منذ عصور ما قبل الميلاد وإلى حد الآن بين الغرب والشرق.

ليست مصادفة أن تنشر عالمة ألمانية هي زيغريد هونكة، Sigrid Hunke كتاباً أشتهر في الشرق والغرب على السواء، ترجم إلى العربية بعنوان: شمس العرب تسطع على الغرب: وعنوانه الأصلي باللغة الألمانية: Allahs Sonne über dem Abendland ، كتاب يقع في حوالي الأربعمائة صفحة الذي طبع في ألمانيا عدة طبعات وذاع صيته في الشرق كما في الغرب.

ما هو الغرب وما هو الشرق..؟

منذ العصور القديمة أصطلح على تسمية البلدان التي تقع في مشرق الشمس، شرقاً، وإلى الغرب منها غرباً. على أن تحديدات جغرافية طبوغرافية ساهمت وفي وضع مثل هذه الحدود. حيث اعتبر البحر الأبيض المتوسط الفاصل بين أوروبا وأفريقيا حداثاً طبيعياً ومضيق البسفور وجبال الأورال التي تقسم روسيا الفسيحة المترامية الأطراف إلى شرقية وغربية، وذلك في عصر لم تكن فيه الأطالس قد وضعت وحدود القارات قد رسمت.

الشرق موطن الحكمة، الشرق موطن المعرفة الأولى، الشرق علم العالم الحرف والرقم والدولاب، حتى قيل في أوروبا: أن كل معرفة يعود جذرها إلى الشرق.

وإذا كان رصد كل هذه النشاطات لباحث واحد عملاً أشبه بالمستحيل، فلنقم إذن بتجميع كل مباحثنا بهذا الصدد وبتراكم جهود باحثين ومحققين من كل أقطارنا نكون قد أسسنا بداية لعمل كبير يبدأ بخطوة ...

وهذا العمل هو مجموعة من البحوث والمقالات البعض منها مترجم والآخر كنا قد نشرناه في دوريات تخصصية، أو مواقع تعني بالبحث والتقصي. وقد أثرنا عدم التدخل في البحوث التي قمنا بترجمتها، رغم ملاحظتنا الشخصية على بعض ما ورد فيها، فالأساس في فكرة هذا الكتاب هو معرفة رؤية كتاب الغرب وأحكامهم على التطورات السياسية والثقافية والاجتماعية لأقطارنا العربية. إن معرفة فحوى وحيثيات تلك الرؤية مسألة كبيرة ليس بوسع هذا الكتاب تغطيته، ولا بد من باحثين آخرين أن يدلوا بدلوه في هذا الجب العميق.

إنني أعتقد أن جهداً ينبغي أن يبذل من العلماء والكتاب في الشرق والغرب على حد سواء، جهد يظهر عمق الصلات الثقافية والإنسانية بين الشرق والغرب، جهد قامت عليه الحضارات في العالم أجمع، فلا أحد بوسعها أن يقيم إحصاءاً عن الزيجات المختلطة، عن مجتمعات تهوى التقارب، عن شعوب تريد أن تعبر عن إرادتها في التقارب والمحبة لا العدا والنفور والكرهية.

ولتكن هذه الخطوة إضافة لجهد الآخرين ... وجهد يتطلع لجهود آخرين

دعونا نحفر قنوات الحب .. ليصاب دعاة البغضاء باليأس

د. ضرغام الدباغ
سبتمبر / أيلول / 2005
برلين

صورة الغلاف : الأسطراب العربي هدية الخليفة العباسي للملك الأوربي كارل الكبير

لقاء الحضارات



موت ملك

Eugene Delacroix (1798-1863)

يوجين ديلاكروا 1798 - 1863

ثانياً : لقاء الحضارات

الشرق لله
الغرب لله
أرض الجنوب و أرض الشمال
تسلمان في يد الرحمن

في هذه الكلمات البليغة للشاعر الألماني الكبير يوهان فولفجانج جوته، بيان واضح أن البشر أينما كانوا، هم عباد لرب واحد. وأن الإنسان أينما وجد، إنما هو من خلق الله الواحد الأحد رب البشر جميعاً، سواء كانوا في الشرق أو في الغرب، في الشمال أو في الجنوب. وأمام الباحثين في بطون التاريخ ومصادره، نجد أن القضية الإنسانية ذات جذر واحد على كاهه الأربعة، يتمثل بسعي الإنسان في كل زمان ومكان إلى الخير، والخير هو عالم رحب واسع يقبل ويتحمل ويتقبل خيارات كثيرة بعكس الشر والحقد الذي يؤدي فقط وحتماً إلى الدمار والظلم والظلام.

وعبر العصور والأزمان، كان طريق التعاون والتعارف بين بني البشر واستطراداً، الصداقة يطول ويتسع لفعاليات كثيرة: تجاربه وثقافية وسياسية. فالسياسة هي أصلاً مشروع لخدمه الخير والتعاون، هكذا كانت قوافل التجار من بلاد الرافدين (بابل وأشور) تترتد مناطق وسط أوروبا منذ العصور ما قبل الميلادية، فقد وجدت آثار تدل على هذه العلاقات في شرق أوروبا (المناطق السلافية) وتقترب تلك الآثار حتى تصل إلى سواحل بحر البلطيق وبحر الشمال، تدل على علاقات تجاربه حتى مع البلدان الاسكندنافية .

ومن المؤكد أن هذا التعامل اتخذ أبعاداً أوسع مع حلول العصور الميلادية وفجر الحضارة الإسلامية، حيث تعددت الصعد التي نشطت فيها تلك العلاقات، ودون شك، فإن العلاقات التجارية كانت في مقدمه تلك الأنشطة، إذ كانت القوافل تقصد أواسط أوروبا وشمالها من محاور متعددة. فمن المعلوم أن طريق الحرير كان ينطلق من الصين إلى أواسط آسيا ثم يتخذ طريقه متفرعاً ومتشعباً عبر المناطق الروسية إلى السلافية، ومن آسيا الوسطى عبر بلاد فارس إلى وادي الرافدين، إلى بلاد الشام حيث سواحل البحر المتوسط، متوصلاً إلى بلاد الأناضول (تركيا حالياً) إلى البلقان واليونان وأوروبا الوسطى.

نعم، كانت التجارة العلامة الأكثر بروزاً، ولكن دون إغفال التبادل الثقافي. ونحن نعلم أن هيرودوت الإغريقي جاء إلى مصر ووادي الرافدين ومكث في بابل وكذلك فعل فلاسفة آخرون، وسوف تتواصل العلاقات الثقافية إذ كان هناك تبادل ثقافي ومعلوماتي مهم وواسع منذ العصور قبل الميلادية وبصفة خاصة عن حركة النجوم وأسس علم الفلك.

ولعل الاتصال الأكثر شهرة، تمثل في السفارات والرسائل وتبادل الهدايا بين الخليفة العباسي هارون الرشيد وشارلمان في القرن الميلادي الثامن. والمهم في هذه السفارات أنها كانت تمثل المساعي الدبلوماسية لإقامة محور سياسي له أبعاده المختلفة بين بغداد/عاصمه الخلافة العربية الإسلامية، وأخن حيث كانت عاصمه كارل الكبير (شارلمان)، وكان ذلك في عام 797 ميلادية، وتلك المساعي كانت تهدف إلى إيقاف الخطر البيزنطي وكذلك مخاطر الدولة العربية في الأندلس على كلتا الإمبراطوريتين اللتان كانتا تمثلان مخاطر مشتركة للطرفين. وهكذا تقدمت المصالح الاستراتيجية: الاقتصادية / السياسية على سواها .

وبرغم أن الحروب الصليبية 11-13 من القرون الميلادية، شكلت نقطه سلبية في العلاقات العربية /الإسلامية - الأوروبية - المسيحية، إلا أنها مثلت في الوقت نفسه مناسبة لتبادل الخبرات في حقول كثيرة، ثقافية بالدرجة الأولى، وفي تطوير وسائل الإنتاج أيضاً. فقد كانت هناك بالتأكيد حروب ومعارك، ولكن كانت هناك صفحات إنسانية أيضاً. فقد تأثر قيصر ألماني بالثقافة العربية حتى أتتقن لغتها واحب العرب (القيصر فريديريك الثاني - توفي عام 125) وكان كارها للحرب ضد العرب المسلمين ومحبا للسلام.

مثل الشرق الأوسط (بما في ذلك شمال أفريقيا) يؤره إشعاع وجذب، هكذا كان الأمر عبر التاريخ في الصلات السياسية والثقافية والاقتصادية، الشرق الذي اجتذب منذ عصور التنوير موجات جديدة من القادمين من الغرب، ومثلت ذروه تصاعد الفعاليات الثقافية التي أثارها وحركتها مؤشرات عصر النهضة ومن ثم عصر التنوير، فجاء الباحثون والآثاريون و الجغرافيون والمؤرخون. ثم تأسست فيما أطلق عليها بحركة الاستشراق والمستشرقين الذين جاءوا إلى البلاد العربية، مصر والعراق بدرجه رئيسيه باعتبار أن هذين البلدين يمثلان حجر الأساس في حضارة الشرق بل والحضارة العالمية بأسرها، أي الحضارة التي نشأت في وادي الرافدين ووادي النيل.

واكتشافات الأركيولوجيون الألمان والفرنسيون والإنكليز لم تكن بسيطة. فقد كان لاكتشاف حجر رشيد وفك ألغازه على يد العالم الفرنسي شامبليون، ومنها أمكن قراءة الخط السومري والبابلي ولغات ولهجات أخرى، وبذلك أضيفت مساحات أخرى مهمة للثقافة العالمية، قانونيه وعلميه وفنية ما تزال خاضعة حتى الآن للدراسة والمراجعة وما زالت الاكتشافات متواصلة وما زال فك المزيد من الأسرار يضيف باستمرار للثقافة والأدب العالمي نتائج ومعطيات كثيرة. ولكن التطور في وسائل المواصلات سهل تنقلات الجيوش، وللأسف كان هناك من يستغل التطور العلمي من أجل تصنيع السلاح وتسويق بضائع أخرى، واقصد هنا بالضبط: موجه الحملات الاستعمارية التي غزت بلدان الشرق وأسست نظماً استعمارية تسيء إلى العلاقات الإنسانية بين الشعوب والحضارات.

وبرغم ما تحمله هذه المرحلة من مرارة، إلا أن التواصل الثقافي استمر وكان رسامون كثر أبرزهم الفرنسي يوجين ديلاكروا والروائي غوستاف فلوبيير وآخرون توجهوا إلى الشرق وعكسوا في أعمالهم الكثير من خصائص الحياة هناك، وموسيقيون أبرزهم فيردي وروانيون أبرزهم البريطانيه اجاثا كريستي. ومنهم من تفاعل وجدانياً مع الشرق منهم الموسيقار الروسي كورسكوف، الذي كتب شهرزاد مستوحياً أجواء وسحر بغداد في القرن الثامن ميلادي، والإيطالي روسيني الذي كتب واحدة من روائعه: حلاق اشبيلية، مستوحياً أجواء الأندلس في ازدهارها، كما شاعت في الغرب قصص وروايات ألف ليله وليله، والبساط الطائر، علاء الدين والمصباح السحري، علي بابا وغيرها. كما يتداول المثقفون الأوروبيون وعلى نطاق واسع في العصور الحديثه الملاحم البابلية والسومريه واشهرها ملحمة كلكامش وغيرها من الملاحم التي تنتمي إلى أدب وادي الرافدين ق.م ، لما تنطوي عليها من صور عميقة، إنسانية واجتماعية وسياسية، بل ليس نادراً أن نستمع إلى الموسيقى العربية في كل مكان في أوروبا، وقد يكون ذلك في الأوبرا أو في المقاهي.

والإيطاليون الذين كانوا روادا في دراسة الفلسفة وعلى مقربة من الأندلس، لذلك كان التفاعل قويا ومؤثراً، حيث قام الفيلسوف العربي ابن رشد بإعادة كتابه مؤلفات أفلاطون وأرسطو، فتأثرت طائفة كبيرة من الفلاسفة الإيطاليين بابن رشد حيث تأسست جامعة بادوفا التي تخصصت بالمنهج العلمي لأبن رشد ودراساته وأبحاثه الفلسفية، التي كان لها دورها البارز في تبلورات ثقافية لاحقه وفي تطور الفلسفة في أوروبا.

إن هذا العمل يهدف إلى إبراز الخير والجمال في التعاون واللقاء... حقاً إن العالم قد أصبح صغيراً، وإن تبادل الثقافات أصبح امراً محتماً... وإن الحياة المشتركة على ظهر كوكب واحد، يعني إمكانية ارتشاف المزيد مما أنجزته ويمكن أن تنجزه حضارات وثقافات عديدة في إطار من الصداقه والود وليس التناقض والكرهية والعدوان. وعلى

كل المثقفين والمتحررين من الضغوط، الذاتية منها والموضوعية، أن ترفع شعار: لقاء الحضارات، لذلك فإن عنوان لقاء الحضارات سيحضى برضى واستحسان الكثيرين، ولكن ربما استياء بعض آخر نأمل أن لا يكون كبيراً.

إنني أريد بذلك التأكيد على أن لقاء الحضارات في تفاعله ينتج الروائع والأعمال الخالدة، بل أن الحضارة الإنسانية بأسرها ما هي إلا نتاج تفاعل حضارات وإسهامات لأمم شعوب كثيرة وأن هذا الصرح الشامخ الذي نراه اليوم، ما هو إلا نتاج الإنسانية عبر تاريخها الطويل شاركت فيه كل الأمم، وربما حتى شعب الاسكيمو.

وطالما ليست بأيدينا أدوات قياس دقيقه وحاسمة، فأنه قد يتعذر علينا قياس مشاركته أي طرف. لذلك نحن مضطرون للقول: أن أي مساهمة من أي طرف في هذا الصرح الشامخ تؤشر وتسجل أصحابها في قائمة الشرف.

نعم، إن التعاون يخلق المحبه ويوطد العلاقات ويعمقها بل ويجذرهما، فيما لا يخلف التعصب والتطرف سوى الخراب والدمار ولا ينتج سوى الكراهية. ونريد في هذه المساهمة المتواضعة الإشارة إلي عمل خلاق، إبداعي ساهم فيه:

أولاً: ملك عراقي شجاع، عالي النفس.

ثانياً: رسام فرنسي منح في لوحته القوة حيث يجب أن تكون، والكبرياء والفخر حيثما كان ذلك ضرورياً. والنعموة والجمال الذي تقدمه لنا الحياة بسخاء لا يفسده سوى الوحشية والعنف والاعتصاب.

وثالثاً: شاعر بريطاني، جعل بطل هذه الدراما (الملك الآشوري - البابلي، العراقي) يتحدث إلينا ويوجه لنا وللتاريخ خطابه الأخير .

أنتي أتسائل هنا، كيف كان لنا أن نحتفظ بالأبعاد الإنسانية والتاريخ بمعناه الفني الرفيع، للملك الآشوري دون ريشة الرسام الفرنسي ديلاكروا، ودون قصيدة الشاعر البريطاني اللورد بايرن. أليس في ذلك دليل ساطع على جمال وروعة لقاء الحضارات وليس صراعها وفي تراكمها تحرز البشرية التقدم ؟

أن المتشائمين ومطلقى الشعارات السوداء يريدون منا أن نشعل نيران الكراهية والحقده. ومن أجل ذلك ترى كم لوحة رائعة علينا أن نحرق، منها رائعة ديلاكروا هذه بل وأيضا اللوحة الجميلة المعيرة ليوليوس كيوكرت، هارون الرشيد يستقبل في بلاطه ببغداد رسل كارل الكبير (شارمان). يريدون أن يقلع العالم عن سماع حلاق أشبيليه رائعة روسيني، وأن نلعن كورسكوف الذي أبدع شهرزاد، وأن نوجه الشتائم لغوته لأنه كتب الديوان الشرقي. وعلى أطفالنا أن ينسوا مغامرات سندباد وعلي بابا والبساط الطائر، وكم هائل لا يعد ولا يحصى من المنجزات العلمية في: الطب والصيدلة والكيمياء والفيزياء والفلك، وكل ذلك مقابل ماذا؟... وترى هل لبئر الحقد و الكراهية من قرار ونهاية ؟

أنني أريد أن أقول لمواطني الشرق أولاً ثم لمواطني الغرب، ما قاله الشاعر الألماني العظيم: الشرق لله والغرب لله . أننا جميعاً أخوة في الإنسانية، نعيش على ظهر كوكب واحد، وما أصغر هذا الكوكب .

دعوا نهر المحبه والتعاون يجري، علينا أن لا نقيم العوائق في طريقه، بل لنساهم جميعاً أن نكون قطره خير ومحبه في هذا النهر. إن المهمة تبدو صعبه ولكنها ليست مستحيلة وبإسهام الجميع ستصبح سهله ويسيره واني أمل أن تكون هذه المساهمة قطره في هذا

التيار الرائع، تيار الحضارة الإنسانية العالمية، دون تعصب أو تطرف، بل بالحب والعمل المشترك .

*

*

*

لم تستعد بلاد الرافدين الاستقرار والهدوء بعد سقوط الدولة البابلية، إلا بعد 500 عاماً من النزاعات والحروب المحلية وأنظمة الحكم الصغيرة، وذلك عندما تمكن الآشوريون الذين كانوا قد أقاموا دولتهم في شمال العراق واتخذوا من نينوى عاصمه لهم ثم تمكنوا من بسط سيطرتهم وسلطانهم على بلاد ما بين النهرين بأسره، بما في ذلك العاصمه القديمة بابل. بل أنهم نجحوا بإقامة إمبراطورية عملاقة، اتسعت في جميع الاتجاهات.

والآشوريون لم يكونوا غرباء عن بلاد الرافدين. إذ كانوا متواجدين في أعالي نهر دجله منذ آلاف السنين، ثم تمكنوا من تأسيس إمبراطورية قوية وواسعة، تواصل على استلام عرشها 116 ملكاً، وبذلك فأنها كانت الأكثر استقراراً من سابقتها من الإمبراطوريات والدول، بما في ذلك دوله بابل العظيمة التي لم يتوارث الملك فيها إلا 36 ملكاً.

ازدهر الأدب والفن في الدولة الآشورية، وتطورت المنجزات وتجاوزت عما كانت عليه في العهود السابقة، وكان ذلك مترافقاً مع الاستقرار السياسي واتساع نفوذهم الذي بلغ سواحل الخليج العربي جنوباً، ودوله عيلام شرقاً، وحتى جبال ارمينيا شمالاً، وإلى البحر المتوسط غرباً (بحر أمور العظيم) بما في ذلك قبرص ومصر وشبه الجزيرة العربية. إمبراطورية وقوة عظمى .

وقد اكتسب الملوك الآشوريون المجد، ومنهم على سبيل المثال الملكه شامورامات وهو ما يعني الاسم الجميل وتعرف أيضاً باسم سميراميس، وقد نالت المجد بفضل سياستها الحكيمة ودولتها ذات الاجهزه الإدارية المحكمة، وبميلها إلى الفن المعماري. ومنهم أيضاً الملك سرجون الذي كان يحمل لقب (الجندي الشجاع) بسبب قيادته الناجحة للجيش، وكذلك الملك سنحاريب الذي اشتهر بميله إلى الأعمار ويشهد السد وقناة الري في نينوى التي تحمل اسمه روعة هذا المنجز الهندسي الخالد.

الحكام الآشوريون كانوا مأخوذون بسحر وروعه الفنون والثقافة في بابل، وفخورين بأن تضم دولتهم هذه المدينة التاريخية العظيمة السابقة لهم في الحكم والمجد. ولكن لم يكن بوسع البابليين التصور والتحمل أن لا تكون بابل مدينه الثقافة العظيمة عاصمه للإمبراطورية، رغم أن الآشوريون فعلوا كل شي لأن تتحد عاصمتهم الجديدة مع العاصمة القديمة في لغة وآله، مشتركة. كما حرص ملوك الآشوريون على الزواج من سيدات بابليات من أجل المزيد من توثيق العرى .

وكان الملوك الآشوريين قد شيّدوا عاصمه جديدة حملت اسم دورشاروكين، ويطلق عليها أيضاً اسم (خرصباد) لا تقل روعة وعظمة عن بابل. إلا أن وفاة الملك اسرحدون كانت قد جلبت بداية النهاية لوحدة الدولة وكيانها، إذ اندلعت الصراعات بين الإخوة حول مناطق الإمبراطورية، ومن جهة أخرى كان اتساع رقعة الإمبراطورية عاملاً مساعداً لهذا التمزق، فعادت الدول الصغيرة إلى البروز في بلاد ما بين النهرين، وكذلك الحروب المحلية وكان ذلك يدور حوالي 660 ق. م .

* * *

كان ساردانبال آخر ملك آشوري في بابل وسعيًا إلى السلطة والعرش تأمر ضده قائد جيشة الميدي، وحدث ذلك في وقت من السنة كانت فيه مياه نهر الفرات قد فاضت حتى بلغت إرجاء قصره فساهمت مع المتآمرين في تعجيل سقوطه .

وعندما أدرك الملك ساردانبال عدم جدوى القتال والمقاومة وإراقة الدماء، قرر الانتحار مع زوجاته وحاشيته. وقبل ذلك قتل خيوله الإصيلة وكلاب الصيد النادرة، ثم سكب العطور والمشروبات الكحولية على عرشه وأضرم النار في نفائسه وأعز ما يملك، وجلس بكل كبرياء في شرفة قصره المطل على نهر الفرات وحدائقها الغناء، منتظرًا أن يتصاعد اللهب ليجلب الموت الذي ارتضاه .
ترى هل كان ساردانبال رجلاً تحجرت فيه عواطفه؟ ... أم ترى انه اختار نهايته على هذه الصورة، ليس كملك يفكر حتى آخر لحظه بالسلطة والسلطان، بل كإنسان أختار نهاية شاعرية رومانسية.

هذه الرؤى حركت خيال الرسام الفرنسي يوجين ديلاكروا (1798-1863) فحولها إلي لوحة شهيرة تحمل اسم (موت ملك) التي يصفها بعض النقاد بأنها من أجمل أعمال ديلاكروا إلى جانب روائعه الأخرى ومنها لوحته الرائعة (الحرية تقود الشعب).

وهذه اللوحة الرائعة والتي هي بحجم 495×395، رسمت عام 1827 بالزيت على قماش الكتان، هي اليوم من نفائس متحف اللوفر بباريس. وهي تصور الملك الأشوري / البابلي ساردانبال وهو يجلس على عرشه بكل كبرياء يتطلع بشجاعة ممزوجة بالعطف إلي قتل نسائه وخيوله. انه لمنظر يصور الجمال والنعومة والوحشية في آن واحد .

ساردانبال الإنسان كان قد قرر أن لا يسقط هذا الجمال ضحية للعدوان والوحشية، وكذا نفائسه غنيمة بيد المعتدي، ساردانبال وهو الفارس الشجاع، المحب للسلام والمبغض للحروب، ليس بسبب التخاذل أو الخوف، ولكنها الشجاعة النبيلة أملت الموت حرقاً محتضناً للهب. على هذا النحو أراد ديلاكروا أن يعرض اللحظات الأخيرة من حياة الملك ساردانبال.....

الموت محترقاً مع النفائس والجمال .
كان صحفي قد سأل مرة الكاتب المسرحي الشهير جان كوكتو : ماذا تفعل إذا شاهدت دارتك الجميلة بكل ما تضم من كتب رائعة ولوحات الأصيله التي أهداها لك أصدقائك الفنانون، وكذلك تحفك الثمينة، وقد شبت النيران في كل ذلك ؟

فأجاب كوكتو على الفور: إذن احتضن ذلك اللهب الرائع بين ذراعي .

أما الشاعر البريطاني بايرن (اللورد جورج بايرن 1788-1927) وهو مناضل قضى من اجل الحرية في اليونان وهو في شبابه، فإنه اطلع على هذه الدراما ثم شاهد اللوحة الرائعة لديلاكروا، وكتب واحدة من قصائده الرائعة .

هكذا بايرن يتخيل خطاب ساردينال كلماته الأخيرة المتأخره ! ...

كم أحببت وكم عشقت
كم مارست الخيال في حياتي .
لم أدع لحظة واحدة من الحب تفلت من يدي
ولكنه الموت....
أنه ليس غريب عني
أنه أسهل مما نتخيل و نتصور ...
حقا ... أنني لم أدع قطرة دم واحدة تهدر عبثا
ما يملأ منه البحار ...
كسيد، لم افعل ذلك
أن يطبع اسمي مقرون بالموت في كل مكان
كان بوسعي أن افعل كل ضروب الرعب
التي تخلد كذكريات للنصر
ولكني لم افعل ذلك ...
ولست نادم على ذلك ...
فحياتي هي الحب
أكثر نقاء و صفاء
من مياه الأنهار
ولكن عندما يكون أهرق الدماء ضرورياً
لذلك
فأنا فخور بأنني لم أضحي بقطرة دم من أجلي ...
من سرايين ابناء آشور
وإذا شاءوا بعد ذلك أن يكرهوني ...
فذلك
لأنني لا احمل في قلبي الكراهية
وإذا ثار بوجهي عصاة، فلأنني لست بطاغية
كم أنتم رجال سيئون..
لا ترتضون يدا تحمل الصولجان
بل يدا تضرب بالسيف ...

المصادر :

د. عكاشة, ثروت : الفن العراقي القديم بيروت 1974
كونومتل شتات : يوجين ديلاكروا برلين 1974 باللغة الألمانية
مجموعة مؤلفين : تاريخ العالم ج. 1. لايبزج 1981 باللغة الألمانية

Dr. Durgham Al Dabak

Begegnungen der Zivilisationen

Gottes ist der Orient!
Gottes ist der Okzident!
Nord und südliches Gelände
Ruht im Frieden seiner Hände

(Johann Wolfgang von Goethe)

Diese bedeutsamen Verse des großen deutschen Dichters Johann Wolfgang von Goethe sind eine Erklärung dafür, dass die Menschen, wo immer sie auch sesshaft sind, ob im Osten oder im Westen, im Norden oder im Süden, eine Schöpfung eines einzigen Gottes sind, Gläubige an einen einzigen Gott.

Den Quellen der Historiker entnehmen wir, dass die Wurzeln des Ethos eins sind. Das manifestiert sich im ethischen und humanistischen Streben des Menschen zum Guten hin, zu allen Zeiten und an allen Orten. Das Gute ist eine weite Welt, es bietet viele Möglichkeiten und Varianten, im Gegensatz zum Bösen, welches nur zu Dunkelheit, Unrecht und Zerstörung führt.

Wie ein roter Faden zieht sich der Weg der Menschen oder Zusammenarbeit und Freundschaft

durch alle Epochen und Zeiten und spiegelt sich in viele Bereiche wider in Handel, in Kultur und in Politik Die Karawanen der Kaufleute aus Mesopotamien, aus Babylon und Assyrien bereisten in vorchristlicher Zeit Mittel- und Zentraleuropa, was durch Ausgrabungen und archäologische Funde hinreichend bewiesen ist. Diese weitläufigen Beziehungen führten zu Handel mit slawischen und baltischen Kaufleuten. In der christlichen Epoche wurden diese Handelsbeziehungen intensiviert. Ihren Höhepunkt jedoch erreichten sie in frühislamischer Zeit, Anfang des 7. Jahrhunderts. Nun drangen die Karawanen aus verschiedenen Richtungen nach Mittel- und Nordeuropa vor.

Es ist hinlänglich bekannt, dass die in China beginnende Seidenstrasse auf mehreren Wegen

Zentralasien durchquert, dann ihren Weg durch russische Gebiete bis hin zum slawischen Raum nimmt, aber auch von Zentralasien durch Persien nach Mesopotamien, weiter nach Syrien und our Mittelmeerküste bis hin nach Anatolien, zum Balkan, nach Griechenland und Zentraleuropa führt.

Sicherlich bildete der Handel den Hauptaspekt, jedoch wurde der kulturelle Austausch nicht vernachlässigt. Dies ist bezeugt durch den

griechischen Geschichtsschreiber Herodot, der Ägypten besuchte und in Mesopotamien und Babylon geforscht hatte, ebenso taten es andere Philosophen. Die kulturellen Beziehungen dauerten an und verfestigten sich. Es gab einen wichtigen Informations- und Wissensaustausch. Vor allem in den vorchristlichen Epochen geht es um die hoch geschätzten Wissenschaften Astrologie und Astronomie. Diese fruchtbaren interkulturellen Beziehungen wurden in den nächsten Jahrhunderten weiter ausgebaut und zeigten neue Horizonte an. Diese langanhaltenden und erfolgreichen Handelsbeziehungen und der gegenseitige kulturelle Austausch gipfelten in der Begegnung zwischen dem Abassitenkalifen Harun al-Raschid und einem Gesandten Karls d. Grossen

im Jahre 797 in Bagdad. Diese Begegnung führte zu diplomatischen Beziehungen. So schickte Harun al-Raschid Gesandte mit Geschenken zu Karl d. Grossen nach Aachen. Diese politisch überaus wichtigen Begegnungen sollten dazu dienen, eine politische Ost-West-Achse zu bilden, mit allen militärischen und strategischen Aspekten, um das aufstrebende und immer mächtiger werdende Byzanz und die arabische Präsenz in Andalusien in Schranken zu halten. Bagdad und Aachen, die Residenzstädte Harun al-Raschids und Karls d. Grossen, waren bestrebt, eine Vormachtsstellung im Rahmen eines Ost-West-Dialogs aufzubauen. Politische, militärische, strategische, ökonomische und kulturelle Beziehungen sollten diese beiden großen Mächte charakterisieren.

Die Kreuzzüge vom 11.-13. Jahrhundert stellten zwar eine Katastrophe in der Beziehung zwischen der arabischen, islamischen, europäischen und christlichen Welt dar, sie änderten aber nichts daran, sich auf vielen Gebieten Wissen und Fähigkeiten auszutauschen, hauptsächlich, Produktionsmittel und –Methoden zu entwickeln.

Trotz der Schlachten und Gemetzel gab es auch menschliche Seiten. Der deutsche Kaiser Friedrich II (1194-1250) war von der arabischen Kultur und Gelehrsamkeit tief beeindruckt, sodass er die arabische Sprache erlernte und sich mit den Weisen seiner Zeit auf allen Gebieten austauschte. Aufs äußerste verurteilte er den Krieg mit den Arabern und den Moslems, denn er liebte den Frieden, und er war auf eine gute Zusammenarbeit mit den Arabern bedacht.

Der Nahe Osten und Nordafrika sind seit alters her ein Magnet für Handels und Kultur Suchende aus dem Westen. In immer neuen Wellen strömten abendländische Abgesandte und Gelehrte in den Orient. Einen Höhepunkt in dieser Begegnung zwischen Abendland und

Morgenland schlug sich in den kulturellen Aktivitäten nieder. Epochen wie die Renaissance, und später die Aufklärung, nahmen großen Einfluss auf den Orient und seine Entwicklung auf verschiedenen Ebenen. Auf zahlreichen Gemälden ist dieser Austausch verewigt worden. Es reisten Forscher, Archäologen, Geografiker und Historiker in den Orient. Sie gründeten die so genannte „Orientalische Bewegung“. Ägypten und der Irak legten den Grundstein für die morgenländische Zivilisation; verstanden sich diese beiden Länder doch als Wiege der Kultur, das blühende Mesopotamien und das fruchtbare Niltal. Zahlreich waren die Entdeckungen und Erforschungen deutscher, englischer und französischer Archäologen. Der Stein von Raschid konnte nun enträtselt werden. Der französische Forscher Champollion entzifferte die Hieroglyphen und machte uns sumerische und babylonische Inschriften zugänglich. Mit diesem Fundus künstlerischer und archäologischer Entdeckungen wurde ein wesentlicher Beitrag zur internationalen Kultur geleistet. Die Lösungen dieser Rätsel waren eine Akkumulation für Kultur und Literatur.

Die neue Entwicklung der Transportmittel erleichterte die Mobilität der Armen. Jedoch gab es auch jene, die die Transportmittel- und Waffenindustrie unterhölhten, um andere Waren auf den Markt zu bringen. Eine Welle von Kolonialzügen drang in den Orient ein und gründete Kolonialsysteme, wodurch die menschlichen Beziehungen zwischen den Völkern und Zivilisationen großen Schaden nahmen. Trotz der Kolonialsysteme nahm der kulturelle Austausch weiterhin seinen Lauf. Maler und Schriftsteller, u.a. der Maler Delacroix, der Romancier Flaubert und die Autorin Agatha Christie bereisten den Orient. Ihre Arbeiten reflektieren die Besonderheiten des dortigen Lebens. Ebenso ließen sich Komponisten wie Verdi und Korsakow in ihren Werken vom Orient inspirieren. Der Zauber Bagdads im 8. Jahrhundert inspirierte den russischen Komponisten Korsakow zu seiner Oper „Sheherasade“, der italienische Komponist Rossini schuf mit seiner Oper „Der Barbier von Sevilla“ ein bekanntes und ein hervorragendes Oeuvre, und setzte damit der Blütezeit des arabischen Andalusiens ein Denkmal. Nicht selten hört man arabische Klänge in europäischer zeitgenössischer Musik, wodurch der Orient für uns immer wieder lebendig wird. Des Weiteren war der orientalische Einfluss auf die europäische Literatur unübersehbar. Die Romane „Märchen aus 1001 Nacht“, „Sinbad“, „Alibaba und die vierzig Räuber“ und „Aladin und die Wunderlampe“ sind lediglich die bekanntesten Märchen aus dem Morgenland, die mittlerweile in Europa Pflichtlektüre geworden

sind. Das wohl bekannteste deutschsprachige literarische Werk, das unter orientalischem Einfluss steht, ist Goethes „Der ost-westliche Diwan“.

Seit Ende des 19. Jahrhunderts nimmt die sumerische und babylonische Mythenforschung einen breiten Raum ein. Das Gilgamesch-Epos, mit seinen tiefgründigen Bildern und Erkenntnissen, umrahmt alle menschlichen, gesellschaftlichen und politischen Aspekte.

Die mittelalterliche Philosophie italienischer Gelehrter, durch das Zusammenwirken mit andalusischen Philosophen beeinflusst, stand in ihrer Blüte als die arabische Weise Ibn Ruschd die klassischen Werke von Platon und Aristoteles für die abendländische Welt übersetzte. Durch die Übersetzungstätigkeit Ibn Ruschds wurden die Schriften Platons und Aristoteles zu einer wesentlichen und bedeutungsvollen Quelle für späteres philosophisches Gedankengut. Hiervon legt die Universität Perugia Zeugnis ab. Sie wurde zur Wirkungszeit Ibn Ruschds erbaut und fußte auf seine Ideen. Die Philosophie und Lehrtätigkeit dieser Universität war richtungsweisend für das gesamte abendländische Universitätswesen und Kulturverständnis.

Mit meiner Arbeit möchte ich einen Beitrag leisten, das Schöne und das Gute in der Begegnung zwischen Orient und Okzident hervorzuheben.

Tatsächlich ist die Welt im 21. Jahrhundert klein geworden, ein kultureller Austausch ist umso wichtiger als bisher. Das Zusammenleben auf einem Planeten erfordert gegenseitiges Interesse und Verständnis für kulturelle Identitäten und Errungenschaften anderer Zivilisationen - allerdings auf den Boden von Liebe und Freundschaft, nicht von Widerspruch, Hass, Gewalt und Aggression. Alle, die sich vom inneren und äußeren Druck befreit fühlen, sind eingeladen, das Motto „Zusammentreffen der Zivilisationen“ zu bekräftigen

* * *

Der Titel meiner Abhandlung „Zusammentreffen der Zivilisationen“ soll Optimismus verbreiten und eine friedfertige Gemeinschaft unter den Völkern prognostizieren. Ich bin mir sehr darüber im klaren, dass sich auch Gegenstimmen erheben werden. Mit meiner vorliegenden Arbeit möchte ich beweisen, dass das Zusammentreffen verschiedener Kulturen Schönheit hervorbringt,

wie Gemälde, Musik und Literatur. Das Erhabene der interkulturellen Verschmelzung finden wir in einer humanistischen Gesellschaft ausgedrückt. Viele Völker und Nationen haben gemeinsam an unserer hohen Zivilisationsstufe gearbeitet – vielleicht auch das Volk der Eskimos. Wir haben keine einheitliche Messlatte, um zu bestimmen, wie hoch der Anteil einer jeweiligen Nation an unserem hohen Zivilisationsstandard war. Sonst hat jede Kultur ihren wohlverdienten Platz in der Ehrenliste menschlicher Errungenschaften.

Die schöpferische Zusammenarbeit zwischen den Völkern schafft Liebe und Verbundenheit, sie vertieft die Beziehungen untereinander und trägt zum wesentlichen Erfahrungsaustausch bei. Fanatismus und Extremismus hingegen hinterlassen nur Zerstörungen und Ruinen, denn diese negativen Kräfte erzeugen nur Misstrauen und Hass.

Mit meinem Beitrag möchte ich auf eine begabte Arbeit hinweisen. In dieser Arbeit nimmt ein tapferer und edler (irakischer) babylonischer König teil. Ein französischer Maler hält diese Arbeit in einem Gemälde fest, gibt ihr Stärke, wo es sein muss und reflektiert Prestige und Stolz, wo es nötig ist, und er verleiht dem Gemälde Schönheit und Zartheit, die vor uns in Fülle steht. Nur die Grausamkeit und die Gewalt verdirbt alles Schöne und alles Schöpferische. Des Weiteren lässt ein britischer Dichter den Held dieses Dramas, das ist der babylonische König, in einem Gedicht, für uns und die Geschichte, seine letzte Rede halten. Hier stellt sich die Frage, wie wir dieses historische Andenken und ihre menschliche Bedeutung ohne die Feder des französischen Malers Delacroix und ohne des englischen Dichters Lord Byron im Gedächtnis hätte bleiben können. Ist es nicht ein eindeutiger Beweis dafür, dass das Zusammentreffen der Zivilisationen, und nicht deren Auseinandersetzungen, für die Menschheit einen großen Fortschritt bedeutet?

Die Pessimisten verkünden düstere Mottos und wollen in uns das Feuer des Hasses und der Feindschaft entzünden. Wie viele herrliche Gemälde müssen dafür brennen! So wäre das berühmte Gemälde „Harun al Raschid trifft einen Gesandten Karls d. Großen an seinem Hof in Bagdad“ und das Gemälde „Der Tod einer Königin“ von Delacroix den Flammen übergeben worden. Wir würden Rossinis Oper „Der Barbier von Sevilla“ nicht mehr hören, und wir würden die hervorragende Komposition „Sheherasade“ von Korsakow und Goethes „Der ost-wesliche Diwan“ verfluchen. Ebenso müssten unsere Kinder die herrlichen Abenteuer von Sinbad und Alibaba vergessen. Wichtige Kenntnisse aus dem Bereich der Chemie, der

Physik, der Mathematik und der Astronomie wären für uns heute nicht mehr zugänglich.

Hat dieser Brunnen des Hasses ein Ende?

An die Bewohner des Orients und der Bewohner des Abendlandes möchte ich mich mit den Worten wenden, die der große deutsche Dichter und Denker Johann Wolfgang von Goethe gesprochen hat:

„Gott ist der Orient!

Gott ist der Okzident!“

Wir sind alle Brüder der Menschlichkeit auf einem Planeten – und wie klein ist dieser Planet!

Der Fluss der Liebe und Zusammenarbeit fließt; wir müssen keine Hindernisse schaffen. Wir alle müssen daran arbeiten und wirken, ein sauberes Tröpfchen in diesem Fluss zu sein.

Diese Aufgabe scheint schwer, aber sie ist nicht unmöglich – und mit der Teilnahme aller Menschen wird es einfacher, diese Aufgabe zu bewältigen.

Ich hoffe, dass mein Beitrag in diesem wunderbaren Strom eingebettet ist, dem Strom der menschlichen und internationalen Zivilisation, ohne Fanatismus und Extremismus, jedoch mit Liebe und Zusammenarbeit.

* * *

Ein Gemälde und eine Geschichte

Die Stabilität und die Ruhe gewann Mesopotamien nach dem Zerfall des Babylonischen Staates erst wieder, als fünf Jahrhunderte Unruhe, lokalen Kriegen und Kleinstaatenregime vergingen und dies, nachdem es den Assyrern gelang, für sich einen Staat im Norden Iraks mit der Hauptstadt Ninive zu errichten. Sie konnten ihre Herrschaft über das ganze Zweistromland, einschließlich seines alten Zentrums Babylon, ausbreiten. Die Assyrer waren keine Eindringlinge in Mesopotamien. Sie waren am oberen Tigris seit der Frühgeschichte ansässig und hatten ein mächtigeres Reich errichtet, auf dessen Thron Einhundertundsechzehn (116) Könige saßen.

Deshalb galt es als das stabilste der Staaten von ihm, einschließlich (der Große Stadt) Babylon, dessen Könige sechsunddreißig zählten. Im Assyrischen Staat (1700v.u.Z. bis 612v.u.Z.) gedieh Kultur und Kunst, und es entwickelten sich die Errungenschaften ihrer babylonischen Vorfahren weiter. All dies war von der politischen Stabilität begleitet. Sie konnten ihre Herrschaft nach Süden bis zum Arabischen Golf, nach Osten bis Ilam, im Norden bis in die Berge Armeniens und nach Westen bis zum Mittelmeer, Zypern, Ägypten und der arabischen Halbinsel auszudehnen.

Die Könige der Assyrer erlangten Ruhm, wie z.B. die Königin Samuramat, deren Namen Samiramis bekannt wurde. Sie erlangte Ruhm durch ihre weise Politik und genaues Lenken des Staatsapparates sowie durch ihre Neigung our Architektur. Ebenso war König Sargon, der den Titel „der mutige Soldat“ trug, für seine erfolgreiche militärische Führung bekannt. Ferner ist König Senharib erwähnenswert.

Die Assyrer waren von der großen Kultur Babylons stark fasziniert und stolz auf den Einschluss dieses historischen Stadtstaates in ihrem Reich. Die Babylonier ertrugen aber selbst nicht die Vorstellung, dass ihre große Hauptstadt und Kultur nicht zum Zentrum des Reiches wurde. Obwohl die Assyrer alles taten, um die neue Hauptstadt Ninive mit der alten Babylons fester zu vereinigen, blieb der Erfolg aus, zumal die Babylonier und Assyrer eine Sprache sprachen und an dem selben Gott glaubten.

Später bauten die Könige Assyriens eine neue Hauptstadt, die sie Dur-Sharokin nannten, jetzt unter dem Namen Khorsabad bekannten. Ihre Könige vermählten sie mit babylonischen Frauen.

Nach dem Tod des Königs Assar-Haddun, des letzten des vereinigten Reiches, begannen die Brüder sich um die Gebiete zu streiten. Andererseits war die enorme Ausdehnung des reiches ein Faktor für dessen zerfall, erneut zu Kleinstaaten im Zweistromland zu kommen und our wiederkehrer der lokalen Kriege. Dies geschah um 600 V. u. Z.

Der letzte König Assyriens über Babylon war Sardanapal. Gegen ihn rebellierte sein medeascher Heerführer, der ihn den Thron entriss. Dies geschah in einer Jahreszeit, in der der Euphrat über die Ufer trat, wodurch die Überschwemmung sein Palast erfasste und dessen Sturz beschleunigte. Aber erkannte der König Sardanapal die Ausweglosigkeit des Widerstandes und beschloss den Selbstmord mit seinen Frauen und Bediensteten. Vorher tötete er seine reinrassigen Pferde, Jagdhunde und verbrannte sein Palast mit den gesamten Einrichtungen. Er begoss seine Gemächer mit Duftstoffen und alkoholischen Getränken und wartete stolz auf dem Balkon

seines Palastes, an der Fluss- und Gartenseite, bis die Flammen hinaufstiegen und seinen Tod besiegelten.

War Sardanapal ein Mann versteinerter Gefühle oder wählte er sein Ende, um ein poetisch romantischer Mensch und kein König, der an Macht und Reichtum denkt, zu sein?

Diese Darstellung entflamte die Phantasie des französischen Malers Eugene Delacroix (1798-1863). Er fasste sie in einem berühmten Gemälde zusammen, das er „ Tod des Sardanapal“ nannte und das die Kritiker als eines der schönsten Gemälde Delacroix's, verglichen mit seinem berühmten Gemälde „ Die Freiheit führt das Volk“ beschrieben.

Dieses wunderbare Gemälde im Format 395x495 cm, das im Jahre 1827 in Öl auf Leinwand gemalt wurde, befindet sich im Louvre in Paris. Es stellt den König Sardanapal dar, der stolz auf seinem Thron sitzt und dabei das Gemetzel seiner Pferde und schönen Frauen betrachtet. es ist eine Szene, in der Schönheit, Grausamkeit und Feinheit vereint sind.

Der Mensch Sardanapal war entschlossen, dass die Schönheit nicht zum Opfer der Aggression und Gewalt sowie seine Kostbarkeiten Beute für die Aggressoren werden.

Sardanapal, der starke Ritter, den Frieden liebend und Krieg hassend nicht aus Müdigkeit, sondern auf menschlichem Großmut. Auf solche Weise wollte Delacroix die Szene Sardanapal brennend im Angesicht des Todes malen.

Einst wurde der französische Theaterautor Jean Cocteau gefragt: „Was würden sie tun, wenn Sie Ihre schöne Villa mit den wertvollen Büchern und originalen Gemälde die Ihre Freunde von den Malern als Geschenk erhielten sowie alle Ihre Kostbarkeiten, die Sie besitzen, verbrennen sehen“

Cocteau antwortete schlagfertig „Dann nehme ich die Flammen in meine Arme“.

Der englische Dichter Byron hörte das romantische Drama „der Tod“, sah das Gemälde Delacroix und schrieb darüber ein Gedicht.

Sardapal sagt in der Tragödie Byrons:

„Wie viel liebte ich

Wie viel Phantasie brauche ich zum Leben

Kein Moment der schöpferischen Liebe ließ sich mir entgleiten.

Der Tod aber, ist mir nicht fremd.

Er ist leichter vorzustellen als unsere Vorstellung es zu tun vermag.

Tatsächlich, kein Tropfen Blut habe ich umsonst vergossen.

Als Herrscher konnte ich nicht vergießen, dass als weiter Ozean fließen würde.

Und mein Name wird an jedem Ort den Tod berühren.
Ich könnte alle Schläge der Furcht geben,
um sie als Siegeserinnerung zu verewigen.
Aber ich tat es nicht und bereute es nicht.
Mein Leben ist Liebe, klarer als das Wasser des Flusses.
Wenn aber das Schicksal das Blut vergießt erfordert,
so bin ich stolz, kein Blut tropfen mir zum Opfer vergossen zu haben,
aus den Adern der Söhne Assyriens.
Ich vergeudete keine Karat Gold aus den unermesslichen Schätzen
Ninives.
Wenn sie mich danach hassen werden
so, nur weil ich keinen Hass in meinem Herzen trage,
sollten sie in meinem Angesicht rebellieren, so tyrannisiere ich
nicht.
Wie schlechte Männer seid ihr, die keine Hand mit Zepter
akzeptieren,
Sondern eine Hand, die mit dem Schwert schlägt.“

Quellen:

- 1) Dr. Th. Akasha: Die antike Kunst Iraks, Beirut 1974
- 2) Autorenkollektiv: Weltgeschichte, Teil 1, Leipzig 1981.
- 3) 2) Kuno Mittelstadt: Eugene Delacroix, Berlin 1974

ثالثاً : الشرق في عيون الغرب

1

ليس من السهل رصد أولى العلاقات بين الشرق والغرب، فالبشر مطبوع على التجول والتنقل، وفي ذلك ينسج علاقته، الإنسانية قبل كل شيء، ثم الاقتصادية والثقافية، وأخيراً، وأخيراً يوطرها في أعلى مراحل هذه العلاقات رقياً، ضمن علاقات سياسية. وقد تأخذ في مراحلها المتقدمة، نمط معاهدات واتفاقيات كثمرة لعلاقات دبلوماسية يتوصل فيها مثلوا الأطراف إلى تحقيق المصالح بالوسائل السلمية.

ومن المؤكد أن تلك العلاقات كانت قد ابتدأت في فجر التاريخ قبل العصور الميلادية بزمن بعيد. إلا أنه من المعلوم أن الشرق كان قد سبق الغرب على صعيد الحياة الجمعية بتشبيد أولى التجمعات والمدن، فقد بدأت هذه العملية في وادي الرافدين (4 آلاف سنة ق.م) على يد السومريين، وفي أزمنة متقاربة في وادي النيل (2850 ق.م) شيدت أولى المدن في التاريخ المعروف وتم اتحاد بعض المدن القريبة من بعضها بما أطلق عليه دول المدن city states والتي اشتهرت في التاريخ بهذا الاسم بوصفها أولى التجمعات البشرية التي أقامت دولا على أساس القانون. وأسست مجالس تشريعية (مجلس الشباب ومجلس الشيوخ) ونظما سياسية انطوت في جوهر الأمر على تحالف بين سلطة المعبد وسلطة الملك (القصر)، وهذه الخطوة الكبيرة تمثل في فجر التاريخ فتحا حضاريا هائلا. وكانت المدن تشتمل على أبنية فخمة كالمعابد والقصور الملكية والمدارس. ثم أعقبها مرحلة اتحدت فيها دول المدن، أطلق عليها مرحلة عصر السلالات **Dynasty states** ، تشكلت بعدها إمبراطوريات كبيرة: الأكديّة 2325 ق.م ، البابلية الأولى 2000 ق.م، الآشورية 1800 ق.م بابل الثانية 626 – 537 ق.م.

لم تكن تلك التطورات سوى استجابة للتراكم في التطور التاريخي للتجمع الإنساني القائم على تطور أساليب وأدوات الإنتاج، وتطور فهم الإنسان لمحيطه ثم توصله إلى حل مشكلاته السياسية والاقتصادية، مما قاد كمحصلة إلى نظريات السياسة والحكم كذلك حققت إنجازات رائعة على أصعدة الثقافة، القانون، الآداب والعلوم.

وعندما شيد الإغريق أولى مدنهم (البوليسات) 600 – 480 ق.م، كانت بلاد الرافدين قد تعرفت على نظام المدارس في تعميم العلوم والمعارف وبناء السدود وقنوات وأنظمة ري متقدمة (قناة سنحاريب المعلقة في نينوى) ورفع المياه من الأنهار وبناء القصور الباذخة والقلاع والمعابد العملاقة (الزقورات في العراق- الأهرام في مصر)، وقد ازدهرت الزراعة بسبب أنظمة الري المتقدمة ووفرة المياه وتراكم التجربة، وكذلك تربية الماشية. كما شهدت المدن افتتاح ورش لحل مشاكل الحياة اليومية وتوفير أدوات الإنتاج. وكان استخلاص المعادن من الطبيعة: الذهب، النحاس، الحديد، قد وفر إمكانية صناعة الأسلحة وأدوات الزراعة وكذلك صناعة الأقمشة من الأصواف والكتان. كما كان شيد الإنسان أيضا في وادي الرافدين المرصد الفلكية ووضع جداول حركة النجوم وأشهرها كان في مدينة بابل ذات السمعة العالمية آنذاك. وكانت هناك مكاتب ضخمة منها مكتبة الملك الآشوري الشهيرة التي احتوت على آلاف الأعمال العلمية والفنية والأدبية. ثم توج هذا التقدم الحضاري بأبجدية أوغاريت التي اقتبس منها الإغريق أحرف الكتابة، وغيرها

كثير من المنجزات الثقافية والعلمية. وكانت تلك المنجزات هي التي جذبت طلاب العلم والفلسفة والرحالة ومؤرخين مثل هيرودوت إلى بابل، مركز العلم والثقافة.

ومع نشاط الحركة التجارية وانتقال السلع والبضائع، كان من البديهي أن يصاحب ذلك انتقال الأفراد الأفكار. ولدينا الكثير من المصادر التي تشير إلى مثل هذه النشاطات، وبالطبع فإن رحلة هيرودوت وكتابه عنها أهمها وأكثرها دقة، ولكن هناك أيضا مصادر تشير إلى الرحلات التجارية، ومنها البحرية التي وصلت إلى بحر العرب الذي أطلق عليه اسم البحر الأريثيري، وفلاسفة أغريق ذهبوا إلى بابل وتعرفوا على الأنشطة العلمية والفلسفية فيها.

فرحلة هيرودوت التي استغرقت بضع سنين إلى العراق ومصر وفينيقيا عام 484 ق.م عاد بعدها إلى بلاده ووضع مؤلفات عن مشاهداته في بلاد الشرق التي كانت بلاد حكمة ونور، كما شهدت تلك المرحلة رحلات بحرية، حيث كانت السلع والبضائع والأفكار تتحرك دون أن تحدها حدود. وكان التجار يتقنون إدارة مصالحهم على أساس المقايضة التي كانت سائدة بدلا من النقود في آليات وجدت طريقها في التعامل، وقد وجدت آثار تجار من الشرق وبلاد الرافدين في شرق أوربا، بل وحتى في تخوم بحر البلطيق، مما يدل على حجم مدهش لتبادل تجاري واسع النطاق شمل ربما حتى البلدان الاسكندنافية.

ولكن لا بد من الإشارة إلى أن تلك الحركة من التبادل التجاري، الثقافي والعلمي شهدت تناميا متزايدا منذ حملات الاسكندر الكبير في زحفه على بلدان الشرق إذ جاء الغرب إلى الشرق بجيوشه، فأنتهى الاسكندر الحكم البابلي والفرعوني وأقام نظاما عرف بإمبراطورية الاسكندر. فالقادم المحتل يحاول دائما أن يفرض أنماط الحياة السائدة في البلاد التي أتى منها، وكذلك فلسفة الإدارة والحكم والمجال الثقافي بالطبع. ومن جملة ما شملته الثقافة في معطيات ذلك العصر، طراز العمارة والفنون والموسيقى والمسرح، وإلى حد ما الأطعمة والملابس، والاقتباسات من كلتا الحضارتين تأثرت بالموروث المتجذر في تلك المجتمعات القديمة، وكذلك بالطقس والمزاج والمستوى الذهني وغير ذلك من المعطيات.

أطلق المؤرخون والباحثون على هذا الامتداد والتفاعل الثقافي والحضاري تسمية المرحلة الهيلينية نسبة إلى الدولة الإغريقية الهيلينية. الإغريق جاءوا إلى بلاد كانت متقدمة عليهم بأشواط بعيدة في حيازة المعارف والثقافة والفنون. وكان سقوط أنظمة الحكم المحلية نتيجة لشيخوخة الإمبراطوريات الآشورية والبابلية وتظافر عوامل ذاتية وموضوعية عجلت في نهايتها.

الإغريق و الاسكندر الكبير كانوا أول من أدرك هذه الحقائق فطرحوا فكرة تفاعل الحضارتين الشرقية والهيلينية. ومن البديهي أن الحضارة الشرقية كانت تتركز في وادي الرافدين ووادي النيل، وبالفعل فقد ظهرت تأثيرات الحضارة الهيلينية على ملامح وسمات تدرجها عين الفاحص، ولكن الإغريق نقلوا بدورهم منجزات حضارية و معمارية من مصر والعراق وبلاد الشام منها فقرات هامة ومؤشرات في فن عمارة الأعمدة وتيجانها والأقواس و العقود وصناعة الأثاث والمؤثرات الطوطمية، وكان ذلك على الرغم من أنه كان حصيلة لاحتلال وسيطرة جيوش، إلا أن التفاعلات الحضارية كانت تدور بصورة مباشرة وغير مباشرة نتيجة لهذا اللقاء القريب، بل التماس المباشر بين حضارة الشرق والإغريق.

بعد وفاة الاسكندر الكبير وتقاسم إمبراطوريته الواسعة بين قادته: سلوقس في الشرق، بطليموس في مصر، أنتيغونس في أوروبا وتنازع القادة فيما بينهم أدى إلى ما يسمى بدول الديادوشين Diadochen ، دول خلفاء الأسكندر. حيث كان نجم الإمبراطورية الرومانية يبرز ويتصاعد إلى قوة عظمى، ما لبثت أن سقطت مواقع الإغريق تدريجيا واحتلتها بعد أن كانت قد احتلت بلاد الإغريق نفسها، وبذلك انتقل الموقع القيادي في الغرب إلى روما وانتهت صفحة الحضارة الهيلينية في المشرق وضعف إشعاعها بعد أن أصبحت تلك الإمبراطورية العظيمة مجرد مقاطعة رومانية.

جاء المحتلون ومعهم منجزاتهم التي كانت نتيجة لامتزاج معطياتهم مع الإرث الإغريقي ليتفاعل كل ذلك مع معطيات ومنجزات الشرق. وكان الرومان حتى ذلك الوقت وثنيين فيما كانت شعوب المنطقة قد تعرفت على المسيحية وكانت الأديرة والكنائس نقاط إشعاع ثقافية مهمة، وكان لقاء الحضارات والثقافات التي تمر بها بلاد الشرق مع الرومان تفاعلا مهما: العربية، المسيحية، الفارسية، الهندية التي تأثرت وأثرت في بعضها البعض، وقد استطاعت هذه الحضارات الحفاظ على جوهرها بنسب متفاوتة، ولكن هذا التفاعل قد أثمر ثماره، بل أثمرت.

ومن المؤشرات على ذلك، تلقي الغرب المسيحية من الشرق، حيث مضى دعاة المسيحية الأوائل في القرون الميلادية الأولى إلى اليونان وإيطاليا هربا من اضطهاد اليهود بعد صلب السيد المسيح، الذين كانوا قد أصبحوا أعداء للمحتلين الرومان. وقد تمكن دعاة المسيحية من ترسيخ أسس الديانة المسيحية في اليونان وإيطاليا برغم الاضطهاد الذي لاقوه. وكانت المسيحية تحمل عبق الشرق، وما أن لبثت أن أصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية 350 م وكان الغرب في حاجة إلى حكمة الشرق وأصالته. وفي غضون عملية التفاعل العميقة هذه، كانت حضارة الشرق تكتسب ألوانا جديدة لاسيما في العمارة والمسرح والقوانين الرومانية و القوانين التجارية لتضيف إلى التشريع القانوني الشرقي القديم الذي يعود بجذوره إلى بابل وحمورابي العظيم.

في 610 م وببزوغ فجر الإسلام، بدأت مرحلة تاريخية جديدة وفرت الشروط الموضوعية لانعطاف هائل في تاريخ العرب والمنطقة بأجمعها. فالإسلام إلى جانب التوحيد وإمكانية التوجه إلى الخالق دون وساطة من كهنة المعابد الذين مثلوا طبقة طفيلية في المجتمعات، كان يمثل نوعا من الفلسفة الاستكمالية، أي أن الحاضر جيد ولكنه يصبح أفضل بسعي الإنسان. الإسلام كان زاخرا بقواعد وقيم وقوانين اجتماعية وسياسية واقتصادية، ومضى الإسلام يشع حضارة وقوة، شرقا وغربا. وبعد أقل من 20 عام على بزوغ فجره كانت الإرادة العربية الإسلامية قد أنهت الوجود الأجنبي في المشرق المتمثل بالإمبراطوريتين الرومانية والفارسية، وأضحت الحضارتين الهيلينية والرومانية روافد تصب في المجرى الحضاري العام، لكن دون أن تغيره جوهريا.

المصادر:

- 1- Autorenkellektiv: Gesschichte der Araber Teil 1, Berlin 1975
- 2- Autorenkollektive: Weltgeschichte, Teil 1, Leipzig 1981
- 3- Brentjes, Bernhard: Vom Stamm zum Staat, Leipzig 1983
- 4- Eisele, Petra: Babylon, Berlin

رابعاً : الشرق في عيون الغرب

2

ليس بوسع أحد أن يجزم بصفة مطلقة، متى جاء الشرقيين، عرباً كانوا أو مسلمين أو غيرهم إلى أوربا وبأي وسائل ومن أي طرق. فبين أيدينا دلائل ومصادر موثوقة تشير إلى أن تلك الصلات والعلاقات كانت قد ابتدأت منذ أزمنة غابرة بعيدة، ولكن لدينا ما يجعلنا نؤكد أن تلك الصلات كانت منتظمة لقرون عديدة قبل الميلاد، فقد وجدت آثار مؤكدة لتجار من شبه الجزيرة العربية في مناطق بحر إيجة، آسيا الصغرى، بلاد الإغريق والبلقان (شرقي أوروبا) آثاراً لتجار من شبه الجزيرة العربية في جزيرة ديلوس Delos . كما أن كاتبان من اليونان القديمة هما: أريستوفانس Aristo phanes وأوريبيدس Euripides ذكرا في أعمال لهما، أنباء عن تجار من بلاد سبأ (في شبه الجزيرة العربية)، كانوا قد وصلوا إلى تلك الأرجاء، وقاموا بفعاليات تجارية هناك. وكان ذلك قد حدث في القرن الخامس قبل الميلاد.

وإذا كان تعقب تلك الصلات كمن يلاحق ظله، عملاً يقارب المستحيل، ويتطلب جهوداً ومساحات أوسع مما يوفره مجال بحثنا هذا، فأنا سوف نركز على اثنتين من نقاط التماس والاتصال المهمة والتي كان لهما نتائج وآثار مهمة وان تركيزنا على هاتين النقطتين ليس إلا لسببين رئيسيين: -

الأول: أن تلك الاتصالات استغرقت مراحل طويلة (نسبياً). الأندلس: سبعة قرون وجزيرة صقلية: ثلاثة قرون تقريباً من الوجود المباشر وقروناً من التماس غير المباشر. الثاني: الأهمية البالغة للنتائج والآثار الثقافية والعلمية والسياسية الهامة، التي نجمت عن هذا التماس.

ومن المهم في هذا المجال التأكيد على القول، أن التماس كان ينطوي على إشعاع ثقافي وحضاري هام. وأعني هنا: نقطتي التماس: الأندلس وصقلية.

● الأندلس: -

كان الرومان قد بسطوا هيمنتهم على شبه الجزيرة الايبيرية (أسبانيا والبرتغال اليوم) عام 134 قبل الميلاد، ثم زحفت قبائل البرابرة عبر البحر المتوسط من شمال أفريقيا في أوائل القرن الخامس الميلادي. وفي أوائل هذا القرن (الخامس) أرغمت قبائل اللان، قبائل الوندال، أرغمتها على الجلاء من شبه الجزيرة الايبيرية، التي تعزلها عن فرنسا سلسلة جبال البيرنيه المنبوعة Pyreanen، ثم تأثر الغوط الغربيين بعد دخولهم المسيحية بالمذهب الايوسي. وفي عام 587 تركوا هذا المذهب ومالوا إلى الكاثوليكية. ولكن الأحداث مضت دامية في المجتمع الايبيري، فالصراعات الاجتماعية والمذهبية كانت تدور بعنف مدمر. ويقيم البروما، الأستاذ المعاصر في جامعة مدريد أحداث تلك الحقبة قائلاً:

" في غضون السنوات الأخيرة، كانت البلاد، أيبيريا الغوطية، تجتاز فترة من الفوضى والانحطاط والفاقة. والانحطاط الاجتماعي والتعسف طبقي وإهمال للأعمال الزراعية. أمة تضيف الخلافات الدينية والاضطهاد والتعريبات والمصادرات والتقلبات مستمرة في الجهاز السياسي من متاعبها، فتضعها على شفا الحرب الأهلية: تلك كانت العوامل الطبيعية للأحداث اللاحقة ". ومصادقاً لما ذهب إليه البروفيسور البروما، فقد كان المجتمع الايبيري لا يعرف إلا طبقتان اثنان فقط:

- أقلية من النبلاء ورجال الكنيسة وكبار الموظفين.
- أغلبية من الأقتان .

كان أمراء الإقطاع يسومون الرعية سوء العذاب والاستغلال، كما كان هناك تنافس وصراعات بين قادة الكنيسة، واضطهاد وإرهاب يعاني منه اليهود. وفيما كانت أيبيريا تشهد هذه الأحداث والاضطرابات، كان الشمال الإفريقي يتقدم ويزدهر ويحقق المنجزات السياسية والاجتماعية، والثقافية بوجه خاص . كانت أيبيريا تحت حكم الغوط منذ قرنين فقط. منذ القرن الخامس، وكانت هذه الأجواء تخلق مناخاً فريداً من نوعه، فقد أستقر رأي عدد من زعماء الغوط ، منهم يولييان، وكان حاكماً لإحدى الولايات والذي قام بمراسلة القائد العربي في شمال أفريقيا، موسى بن نصير وقدم إليه الدعاة والسفن لاجتياز المضيق والنزول على البر الايبيري .

ولم يرغم العرب المسلمون عندما استقروا في شبه الجزيرة الايبيرية السكان على الدخول في الإسلام، بل على العكس، فقد أصبح منهم وزراء ومستشارين وقادة إداريين وتداخلت عائلات مسلمة ومسيحية بالزواج. وقد فعل ذلك ملوك العرب والمسلمين.

بيد أن لوجود العرب والمسلمين في الأندلس كان له أبعاده الثقافية والفنية والاقتصادية بدرجة رئيسية، فقد نقلوا إلى الأندلس الكثير من أصناف المزروعات والأشجار، وكذلك صناعة الورق (وكان العرب قد نقلوه من الصين)، والنسيج والصناعات الجلدية. وما زالت اللغة الفرنسية تضم مصطلح Corodonnerie ، إشارة إلى صناعة الأحذية في قرطبة. وعلى صعيد الثقافة، كانت الصلات مفتوحة على كافة الاتجاهات. وإذا كان رصدها جميعاً تفوق مهمة يحثنا هذا، لكن يجدر الإشارة بصفة خاصة إلى الأعداد الكبيرة من العلماء الأوربيين الذين كانوا في القرون الوسطى قد جاءوا لدراسة وتعلم العربية مثل : - أدلارد فون باث Adelard von Bath المتوفى عام 1180 وميخائيل سكوت Michal Scott المتوفى عام 1235 ، وكان هؤلاء قد جاءوا للدراسة في جامعات الأندلس. كما كانت هناك مدرسة للترجمة مختصة بنقل مختلف العلوم إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر وكان يديرها المترجم دومنيكو لوديسالفو Domingo loudisalvo .

وكانت مكانة الفكر والفلسفة، والعلوم بصفة عامة، كبيرة في الحياة الاجتماعية والسياسية في الأندلس، فكانت مكتبة عبد الرحمن الثالث خليفة الأندلس، تضم 400,000 ألف مجلد وكانت فهارسها تقع في 44 مجلد تشمل مختلف العلوم. أما الحياة الأدبية فقد كانت ذروة من السمو في نقل الصورة وتقنياتها.

أما على صعيد الفلسفة، فقد امتدت أهمية علماء الفلسفة والسياسة والاجتماع والتاريخ، إلى ما هو أبعد من الأندلس المغرب والمشرق العربي، إلى أوروبا والعالم بأسره علماء

ومفكرين من أمثال: ابن رشد وأبن خلدون والطرطوشي وأبن الأزرق وعلماء في الطب وعلم الأدوية (الصيدلة) مازالت أبحاثهم تثير الاهتمام والدراسة في الجامعات العالمية.

فقد اعتبرت على سبيل المثال، فلسفة أبن رشد هامة للغاية في إنضاج الظروف والمقدمات لعصر النهضة والتنوير أقتبس منها الأوربيون الكثير من أجل الرد على أطروحات السكولاستيون (تأسست السكولاستية Scholasticism في القرن الحادي عشر للملائمة بين الدين والفلسفة) واستعان بها فلاسفة عصر النهضة من أجل الرد على السكولاستيين لا سيما أفكار الراهب الفيلسوف توما الأكويني 1225 - 1274 .Thomas Aquinie

وقد أسس العلماء والفلاسفة الايطاليون الرشديون في ظروف عصر النهضة جامعة بادوفا Paduva في إطار النزاع بين الأرسطوطاليسيين التي كان أبن رشد أفضل شارح ومقدم لها، وبين الافلاطونيين الذين قاد تجمعهم العالم اليوناني الأصل بليتون Plethon (المتوفى عام 1490).

وأسس الأفلاطونيون مدرسة في مدينة إيطالية أخرى وكان لهذا الصراع الفلسفي أثره الإيجابية على التطور العام للفلسفة، وصفة خاصة للفكر الفلسفي السياسي. ولكن إلى جانب فلسفة أبن رشد ويطلقون عليه باللاتينية Averroes ، كان هناك الكثير من المنجزات في مجالات العلوم الصرفه، كالطب وعلم الدواء والرياضيات. ويمكن القول بموضوعية تامة، أن مساهمة الثقافة والعلوم العربية، والمنجزات الحضارية بصفة عامه التي كانت تشع من هاتين البورتين، الأندلس وصقلية وفرنسا إلى حد ما، بالطبع إلى جانب وسائل أخرى، الدور العام في عصر النهضة، واستمرت مصادر الطب والصيدلة العربية أساسية في الجامعات الأوروبية حتى عصر النهضة أو بعدها.

● صقلية :-

كانت جزيرة صقلية تابعة للدولة البيزنطية، وكانت السفن العربية تتخذ منها محطة في إطار فعاليتها التجارية، وكان الاغالبية، وهم أسرة عربية أسسها إبراهيم بن الغالب كان عاملاً للدولة العباسية على مصر ومقاطعات شمال أفريقيا ثم أسس أمارة تتمتع بالكثير من الحرية والاستقلال عن بغداد عاصمة الخلافة العباسية وأسس أسطولاً حربيًا وتجاريًا ضخماً من أجل الدفاع والحفاظ على الأمانة / الدولة ومصالحها أعتبر أحد القوى الرئيسية في البحر المتوسط وكانت صقلية المنطلق للكثير من الهجمات التي كانت توجه صوب إمارته وتهديداً لتجارة الأمانة.

لهذه الأسباب قام الاغالبية باحتلال باليرمو (عاصمة صقلية)، وفي عام 843 ميسينا، وفي عام 878 سيراكوز، وفي عام 902 تورمينا. وتقع جميع هذه المدن في جزيرة صقلية . وحتى منتصف القرن الحادي عشر استمرت الجزيرة تحت إدارة الاغالبية العرب وتؤكد المصادر الأوروبية، أن هذا الوجود العربي كان مهماً في نقل الثقافة العربية الإسلامية إلى أوروبا.

ثم أن الاغالبية توجهوا نحو أراض في شبه جزيرة أبينيو (إيطاليا)، ففي عام 840 احتلوا تارت وفي عام 814 مدينة باري، وفي أعوام 846 – 849 هاجم الجيش العربي روما

وحاصرها لكن دون تحقيق النجاح. ثم نظم البيزنطيون حملات مضادة بقيادة الملك لودفيغ الثاني، وفي عام 880 تمكن البيزنطيون من إخراج العرب من إيطاليا . ولكن هذا التماس وبقدر كان أنطوي الحروب ومشاهد القتال، كان ينطوي على لمحات ثقافية وحضارية كما أسلفنا، فمن هنا، من صقلية تعرف الأوربيون لأول مرة على خارطة العالم التي كان قد أعدها الجغرافي العربي الأدريسي وكذلك على الكثير من فنون الصناعات الزجاجية والأصناف الفاخرة من الأقمشة. ومنجزات ثقافية وحضارية عديدة.

وقد أستمر العرب ذو حظوة ونفوذ علمي وثقافي في بلاطات الملوك والقباصرة، بعد نهاية حكمهم في صقلية، فكانوا معلمين ومستشارين وأفضل الجنود. فقد كان القيصر الألماني فريدريك الثاني (توفي عام 1250)، يجيد اللغة العربية كأحد أبنائها .

مصادر البحث :-

- * أدهم، علي : صقر قريش بيروت / 1974
- * الدباغ، د. ضرغام عبد الله الدباغ: الفكر والنظام السياسي في عهود الخلافة العربية الإسلامية / مخطوطة
- * تشرودوم، البروما : حرية العقيدة في أسبانيا الإسلامية ، مقال في مجلة آفاق عربية ، بغداد - العدد 1 - 1979
- * كرم، يوسف : تاريخ الفلسفة الحديثة القاهرة / 1957
- * Autorenkollektiv : Geschichte der Araber Teil 1 Leipzig 1971

خامساً : بعثة دبلوماسية بين بغداد وآخن



مبعوثي كارل الكبير في بلاط هارون الرشيد ببغداد
يوليوس كيوكيرت 1864 Julius Köckert

د. ضرغام عبد الله الدباغ

بعثة دبلوماسية بين بغداد وآخن

ازدهرت الدولة العربية الإسلامية ونظام الخلافة في العصر العباسي الوسيط، ابتداءً منذ عهد الخليفة هارون الرشيد الذي مثل عصره فترة التآلق، ليس للخلافة العباسية فحسب، بل وللحضارة العربية الإسلامية بأسرها، ومن مؤشرات هذا الازدهار، رخاء اقتصادي، وتعميم للثقافة، ساهم في ذلك توصل العرب إلى صناعة الورق، التي نقلت تقنياتها من الصين، فعمت صناعته في المراكز العربية، ومن ثم ازدهرت الثقافة بصفة عامة.

وكان الأمير هرون الرشيد (قبل أن يستلم الخلافة) قد قاد حملة عسكرية كبيرة على الإمبراطورية البيزنطية (779 - 781) التي ما انفكت تناكف الدولة العربي الإسلامية وتهاجم مدن الثغور، وتلحق الأذى والأضرار بالمواطنين وممتلكاتهم. فلما تقدم الأمير الرشيد في أراضي الدولة البيزنطية، ملحقاً بهم الهزائم، حتى بلغ مدينة

القسطنطينية(استانبول الحالية)، ذات الطبيعة الجغرافية المعقدة، والأسوار الحصينة المنيعة. فحاصرها، فعرضت الملكة أيرني Irene ملكة البيزنطيين الصلح.

قبل الأمير هارون الرشيد الصلح ولكن بشروط وضعها بنفسه، شروط صعبة ومرهقة سياسيا ومالياً. وكانت كما يلي: -

1 . أن تدفع الملكة أيرني أتاوة سنوية قدرها 90 ألف و70 ألف دينار على دفعتين، في نيسان وحزيران.

2 . أن يحمل رسول من ايرنا الهدايا إلى الخليفة المهدي.

3 . تسليم كافة الأسرى المسلمين.

4 . أن تقدم الملكة أيرني الأرزاق على الجيوش الإسلامية لتسهيل عودتهم إلى بلادهم.

5 . مدة الصلح ثلاث سنوات.

أما في البحر، فقد تقاسمت الدولة العربية الإسلامية الهيمنة على البحر المتوسط، إذ استولت البحرية العربية على الكثير من جزر البحر المتوسط: قبرص، كريت، رودوس، صقلية، سردينيا. وقد ظلت بعض هذه الجزر مئات من السنين تحت السيادة العربية الإسلامية.

* * * *

وجدنا من خلال البحث والتتبع للآثار الثقافية على الحضارة الأوربية كم من الصعب حصر، هذه التأثيرات والبواعث الثقافية على كافة الأصعدة. وإذا كان بعضها معروف للقراء والمثقفين العرب، إلا أن كماً غير يسير منها مجهول حتى للمثقفين، بحكم انتشارها في متاحف ومكتبات عديدة متناثرة.

وإذا كان جمع هذه المواد لوحدها تمثل مهمة جليلة، نتطلع بعين الرجاء أن تتولى مؤسسات عربية في عمل منتظم في تولي هذه المسؤولية الجبارة. وقد أخذنا على عاتقنا (قدر الإمكان بالطبع) النقاط مثل هذه الآثار وتعميمها، سواء كانت لوحات وصور، أو أبحاث وتقارير وتقديمها للقرار بهدف تعميم الفائدة، ولكن هذا المجهود كالذي يسبح في بحر متلاطم الأمواج!

فهنا على سبيل المثال لوحتان نادرتان: أحدهما لرسام ألماني، يتمتع بشهرة في وطنه ألمانيا، وهو يوليوس كيوكيرت، عثرنا على هذه اللوحة النادرة التي تمثل الخليفة هرون الرشيد جالساً على كرسيه في بلاطه يستقبل رسل الملك كارك الكبير، واللوحة هي إحدى الموجودات الرائعة لمتحف مكسمليان بميونخ في ألمانيا الاتحادية. ويصف عرش الرشيد بالفخامة والسجاد الفاخر وروائح المسك والعنبر، وبالأطعمة الشهية.

كما وجدنا صدفة، لوحة نادرة أخرى، للأسف بدون أسم مبدعه، تمثل رسل هارون الرشيد وقد وصلوا بلاط الملك كارل الكبير في مدينة آخن (قرب مدينة كولن بوسط ألمانيا) ومعهم هدايا أخرى عدا الفيل، مثل البسط، والزجاجيات، والعطور والسيوف والأقمشة، وكل هذه كانت صناعات عربية فاخرة، وكان ملوك أوربا يعترفون بحيازتها.

ومن بين هدايا الرشيد للملك كارل الكبير: إسطرلاب شهير عد في حينه من نفائس الاختراعات وقد وجدنا صورة نادرة لهذا الأسطرلاب.

* * * *

تشير بعض المصادر أن الوفود والسفارات المتبادلة، تضمنت محادثات سياسية. فقد كان للطرفان خصوم مشتركين، متمثلاً بالدولة البيزنطية، وتقاسم النفوذ في البحر المتوسط الذي كان منذ القرون قبل الميلادية، يعد بحر التجارة بامتياز. بيد أننا لم نعثر على ما يعزز هذه النبأ أو ينفيه، على أن المصادر الألمانية ترجح وجودها، لكن الأمر يبقى دون إيضاحات كافية.

* * * *

أخيراً وجدنا بحثاً أعده باحثان ألمانيان تضم تفاصيل عن رحلة كبعوثي الملك كارل إلى بغداد والعودة، يمكن أن تمنح فكرة تزيد الصورة وضوحاً للأحوال السياسية وحالة الطرق ومفردات سياسية، وشيء من طبائع البشر !

البحث من عمل : كلاوس كريفية / فرانك بول، نشرت في نشرة بريد الشرق : صحيفة للثقافة الشرقية. عدد خاص: أب/ أوغسطس./ 2003

في العام 797 بعث الملك كارل الكبير (شارلمان) ملك الفرنكيين (الفرنج)، المبعوثين إلى هرون الرشيد في بلاطه ببغداد بهدف تحسن العلاقات. عرف منهم ثلاثة: لانترفيد Lantfried، وزيجزموند، Sigsmund كمبعوثان، واليهودي إسحاق Issak كدليل، والذي عمل مترجماً بنفس الوقت.

ولا تتوفر معلومات كثيرة عن رحلة الذهاب. ففي شمال إيطاليا التقى الרכب الفرنكي مع الغراف جبهارت فون تريفيزو Grafen gebhard von Treviso الذي قرر بنفس الوقت إرسال مبعوث منه إلى القدس، وهناك، في القدس افتقرت الطرق، فيما وصل لانترفيد وزيجزموند وإسحاق طريقتهم صوب بغداد. واستغرقت السفرة والإقامة في عاصمة الرشيد عاماً كاملاً، تبادل فيها الطرفان الهدايا والمفاوضات السياسية قفل الفرنكيون عاندين إلى وطنهم.

ومن ضمن الهدايا التي أرسلها الخليفة الرشيد إلى كارل الكبير، فيل (أبيض ؟) ، وحسب المصادر الأوروبية، فإن هذا الفيل الأبيض كانت رغبة الملك كارل الكبير.

ولكن رحلة العودة لم تكن حسنة الطالع، إذ توفي كل من لانترفيد، وزيجزموند خلال الرحلة، فيما تعين أن يقوم إسحاق بخدمة الفيل وسائر عناصر الرحلة ومواصلة الرحلة ولم ينجح بذلك إلا بشق الأنفس: وفي 13 تموز يوليو 802 وصل الרכب ومعهم الفيل إلى عاصمة كارل الكبير، آخن.

وكان إيصال فيل من بغداد إلى آخن يبدو عملاً ينطوي على المجازفة والمغامرة ليس فقط من النظرة الأولى، بل هو كذلك حقاً. وكان الطريق عبر كليجيا، ثم الأناضول ، منها عبر القسطنطينية (أستامبول الحالية)، ومنها إلى البلقان إلى وسط أوروبا الطريق الأكثر قبولاً،

وكان هذا الخط في العصور القديمة (قبل الميلادية والعهود الميلادية الأولى)، الأكثر استخداماً للوصول إلى العاصمة الرومانية، وكذلك من قبل الحجاج الذين كانوا يقصدون القدس من الرومان أو من الجرمان، وعبور الممر المائي البسفور، الضيق يقلص من حجم مخاطر الرحلة البحرية. ولكن إسحاق لم يختر هذا الطريق. لماذا...؟

تعرضت الخارطة السياسية لمنطقة حوض البحر البيض المتوسط لتغيرات مهمة، والسفر عبر القسطنطينية، كان يعني العبور في أراضي كانت في ذلك التاريخ تحت سيادة عاصمة الإمبراطورية البيزنطية السياسية والعسكرية، والدخول في تسع مناطق تابعة لسيادة البلغار والصرب. ولنفس الأسباب والظروف كانت تخضع لها الطرق البحرية من اللاذقية على إيطاليا، والتي تجنبها مبعوثوا كارل الكبير في رحلة الذهاب، والسبب: تجنب الأساطيل البحرية البيزنطية التي كانت تسيطر على منطقة شرقي المتوسط.

أنعطف إسحاق في رحلته صوب الغرب، وسار دائماً بمحاذاة البحر المتوسط، سائراً في المناطق التي تحت سلطان الخليفة العباسي الرشيد. في طرق كانت ممهدة منذ العهد الروماني، من ضمن شبكة الطرق التي جرى أنشاؤها بعناية التي تمت في الولاية التي كانت بعهدة أنطوني أوغستي Antonini Augusti، احد عمال القيصر كراكالا 211 Cracalla (- 217 ق.م).

ولذلك كانت طريق الرحلة البديلة طويلة: بين مصر وشمال أفريقيا، التي كانت فيما مضى ولاية أفريقيا التابعة للدولة الرومانية (دولة تونس الحالية)، لم تكن هناك سوى إمكانية وجود طريق ضيق يمتد بين البحر المتوسط والصحراء، والذي أتخذه إسحاق، وهو الطريق الأكثر أماناً، تخبرنا مصادر الدولة الفرنكية، أن المبعوثين كانوا في حماية ومساعد الأمير إبراهيم، عميد أسرة الأغلبة، الذي كان الخليفة هارون الرشيد قد أرسله لإدارة وقيادة ولاية أفريقيا عام 800م. حيث قدم لهم بواجب الضيافة والإكرام. كان قد أتخذ من مدينة القيروان التي تأسست في القرن السابع الميلادي (شيدها القائد عقبة بن نافع) مقراً لإمارته، التي لم تكن واقعة ضمن شبكة الطرق الرومية، بل على مسافة جانبية منها، على طريق مهم للقوافل التجارية بين الميناء تونس ومدينة المهديّة، من جهة، وأواسط وجنوب الجزائر من جهة أخرى، وليس من المعروف بدقة فيما إذا كان إسحاق قد أقام في القيروان أو أنه توجه دون إبطاء إلى الساحل، إلى أحد الموانئ، من المرجح أن يكون تونس.

ومن المحتمل أن يكون إسحاق قد انتظرهما حتى وجد سفينة نقله إلى البر الأوربي المقابل. والطريق الآخر كان يمتد على ساحل شمال أفريقيا، بمحاذاة البحر المتوسط، ومن ثم عبر شبه الجزيرة الإيبيرية من أجل العودة إلى بلاد الإمبراطورية الفرانكية، كان سيعني رحلة ودورة طويلة، ولكن لأسباب سياسية لم يكن حكيماً. ففي المغرب كانت الأسر: الرستمية والأدريسية قد كونت مراكز نفوذ قوية هناك، حيث لم تعد خاضعة لسلطان الخليفة، وفي شبه الجزيرة كانت الأسرة الأموية هناك، التي كان أبو العباس جد الخليفة هارون الرشيد قد تمكن من إسقاطها عام 750، وعزلها عن السلطة، وفي مناطقهم تلك حيث ليس للركب العائد أن يتلقى أي من أشكال الدعم أو الحماية.

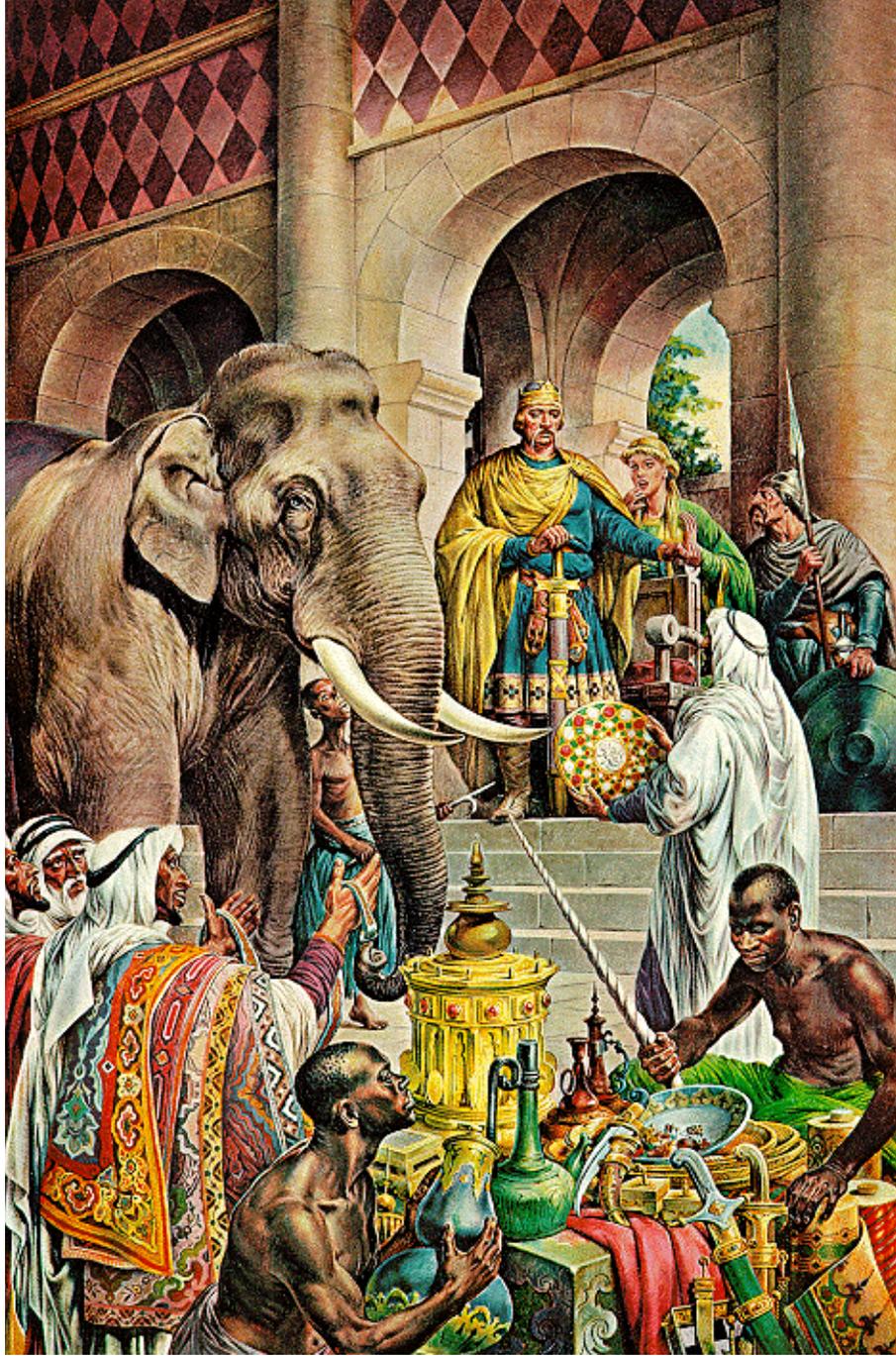
لم يستطع إسحاق تدبر سفينة تأخذه مع الفيل إلى البر الإيطالي، إذ كان إبراهيم بن الأغلب في تلك المرحلة بالذات في حرب مع البيزنطيين على صقلية، فلم يسعه أو لم يكن يرغب بمساعدته، فالأمر يتعلق بعدة أطنان من الوزن التي كان الفيل يمثلها، وهو ما لم تكن العديد من السفن التي كانت تمخر في البحر المتوسط تقبل به.

فقط، وجدت المشكلة طريقها إلى الحل، عندما كان هناك أسطول بحري تابع للملك كارل الكبير، وبواسطة أحد سفنه الكبيرة، تم نقل الفيل من بر شمال أفريقيا إلى برتوفينا Portoveere ليس بعيداً عن موقع سبييتزيا الحالية La Spezia شرقي ليجورين Ligurien وبذلك كان الحل لمشكلة عبور البحر المتوسط. واجتازت السفينة المنطقة البحرية الممتدة بين جزيرتي صقلية وسردينيا اللتان كانتا خاضعتان للبيزنطيين، ولكنهم مروا بسلام بين سفن قراصنة ولصوص بحر التي كانت نشطة في المنطقة غرب البحر المتوسط بين مصب نهر الرون وساحل بروفنزا، وتحيلها إلى منطقة غير آمنة.

ومن بروفنزا، مضت قافلة المبعوثين في أكتوبر من عام 801 ، من المرجح عبر جنوة الإيطالية وبافيا Pavia صوب فرساي من قضاء الشتاء في القصر الملكي هناك. وفي الربيع، كانت أمامه مضائق سلسلة جبال الألب، أختار الركب طريق بيرنهارد لعبور الألب مواصلاً سيره صوب الغرب. ولكنه كان عليه أن يختار أفضل الطرق لاجتياز مضائق الألب الشرقية، مضيق مالويا Maloja-Pass ويولير Julier ، كانت ممكنة للبعثة لأنها تخترق منطقة بإدارة القس فون كور Bischof von Chur ، وتم لهم ذلك رغم وجود مشكلات بسبب وعورة المنطقة.

ما تبقى من الرحلة إلى آخن لم تكن تنطوي على مشكلات. ففي تلك العصور المبكرة لم تكن هناك سوى القليل من الطرق الصالحة، ولكن الرحلة تواصلت إما بمحاذاة بحيرة جنيف، أو عبر أفنشس، والمحطة القادمة كانت لانجرس، ثم ابتدأت الخيارات الكثيرة عبر تول، ميتز، وترير، أو خيار سلوك طريق عبر مدين القساوسة المهمة رايمز، ولكنهم تركوا طريق ميتز وترير واختاروا طريقاً جانبياً عبر أردن وأيفل، بطريق مباشر إلى مدينة كولن Köln ، واعتباراً من تلك المرحلة كان قد أصبح الوصول إلى آخن هيناً.





لوحة لا يعرف رسامها، تمثل قدوم هدايا الخليفة العباسي هارون الرشيد إلى بلاط كارل الكبير في آخن

سادساً: مقدمة موسوعة

تاريخ العرب

ابتدأ العرب في العقدين الأخيرين بكتابة صفحات جديدة في تاريخهم الحديث، إذ احتلوا مكانتهم في تيار النضال العريض لحركة التحرر العالمية، فحطموا بذلك حلقات العبودية، وانظموا إلى المسيرة العالمية ضد الاستعمار، تلك التي كانت ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى عاملها الرئيسي، ومنها ابتدأت مرحلة تلاحم القوى المعادية للاستعمار والهادفة إلى تحرير الشعوب ومن أجل الاشتراكية. فكان النضال العربي يتصاعد من أجل التحرر وتقرير المصير، كما كانت تدور في مساحة الأقطار العربية البالغة 12ن5 مليون كيلو متر مربع حركة نضال تهدف إلى تحقيق الاستقلال والسيادة، وساهمت بنشاط في النضال العالمي، كما طرحت حركة التحرر العربية بقوة في السياسة الدولية.

وتتمسك الأقطار العربية المتحررة بحقوقها غير القابلة للإهمال أو التغافل التي يحاول الاستعمار عرقلتها وإعاقة الجهود من أجل إيجاد حلول للمشكلات عن طريق التطور الاجتماعي والتقدم، وفي نضالها ضد الإمبريالية واعتداءاتها وفي الحفاظ على السلام العالمي بالتعاون مع معسكر التحرر العريض.

إن العرب ينظرون ويتطلعون بكبرياء وفخر إلى ماضيهم ذي التقاليد الثرية. وهم منذ دخولهم في تاريخ العالم في القرن الأول قبل الميلاد، ينتمون إلى تلك الشعوب التي قدمت مساهمات عظيمة لا تنسى من أجل التقدم الاجتماعي للبشرية، وكان الانتصار الذي قاده محمد بن عبد الله (ص) وأكد الإسلام في القرن السابع، المقدمة لتوحيد جميع القبائل في شبه الجزيرة العربية في دولة واحدة، مثلت مكة والمدينة (يثرب) مركزين مهمين لها.

ومن ذلك الحين فصاعداً، فإن أتباع محمد وخلفائه تمكنوا في موجات من الفتوحات، من توسيع سلطانتهم وسيادتهم حتى أواسط القرن الثامن من ضفاف نهر الهندوس في الشرق حتى شبه جزيرة بيرنيه (أسبانيا) في الغرب ومن البحر الأسود في الشمال حتى الحافة الشمالية للصحاري في الجنوب، نهضت واحدة من أعظم الإمبراطوريات العالمية في تاريخ البشرية.

وبالنسبة للعلماء التقدميين، فليس الكم الوافر من الانتصارات في سوح المعارك، هو ما يستدعي الانتباه وإنما الخدمة التي قدمها العرب من أجل التقدم الاجتماعي للبشرية. وعندما وصلت الحضارة والمدنية العربية الإسلامية إلى ذروتها، استطاعت أن تتوصل إلى نظام ري متعدد القنوات مثلت أعلى درجات التطور في الإنتاج الزراعي، وكذلك في التجارة، والمصنوعات اليدوية، في الورش ولاسيما في صناعة السجاد، والنسيج الراقى العالي التطور، وفي إنتاج الجلود التي كانت لها أهميتها في العالم بأسره، كما أن أساتذة عرب ترجموا أعمالاً باللغات اليونانية، اللاتينية، الهندية، فضاعفوا بذلك من حجم العلوم والمعارف التي كانت بحوزتهم في تطور مضاعف للعلوم، كما وضعوا حجر الأساس للكثير من الميادين الرئيسية في العلوم، ودونوا ما كان معروفاً لديهم في تلك الأزمنة في أعمال وكتب موسوعية، وبذلك أصبحت اللغة العربية لغة عالمية، فانتشرت الحروف العربية مع الإسلام إلى شعوب وبلدان غير عربية، وحاز فن الشعر العربي على درة الأدب العالمي وتؤشر اليوم جوامع ومساجد في دمشق والقدس وقرطبة كشواهد لامعة لفن المعمار العربي.

وباختصار، فإن الثقافة في العصور الوسطى للدولة العربية قد أثرت بشدة على التطور الثقافي لأوروبا كما في آسيا وأفريقيا، وكونت أرتاً ثقافياً حيويًا لتلك الشعوب، وهي مؤثرة في الهياكل التقليدية لحياتهم حتى وقتنا الحاضر.

لقد سقطت الإمبراطورية العربية العالمية، وتجزأت إلى عدد من الأقطار، ومارس أعداؤها الضغوط لكي تمنعها من النهوض. فمن موجة الحملات المغولية في القرن الثالث عشر، إلى عصر السيادة التركية - العثمانية في الأقطار العربية منذ بداية القرن السادس عشر، كانت تعني أيضاً نهاية التطور المعتمد على الذات، كما أنها عطلت المسيرة التقدمية الناجحة للثقافة والإرادة العربية وكانت السبب في الجمود الذي أصاب العلاقات الاجتماعية والاقتصادية.

ولكن العرب لم يكفوا مطلقاً عن الثورة بوجه هذه الأقدار، إذ لم يكف نضالهم من أجل الحرية، رغم أن المغول كانوا يبدون وكأن لا شيء قادر على إيقافهم وقهرهم، وكذلك فرسان الحروب الصليبية وقوات المرتزقة الأاسبان، أو جنود السلطان التركي. فقد خاضوا النضال ضد القوى الرجعية والإقطاعية في بلدهم، كما لم يشأ العرب القبول بالاضطهاد تحت شعارات دينية، فمن الممكن أن يكون تحت هذا الشعار أو ذاك اضطهاد مستتر لأقليات أو لفلاحين مضطهدين أو للكسبة وللعمال الفقراء.

وبرز في صفوف الفكر الإسلامي مفكرون عقلانيون (المذهب العقلاني في الفلسفة Rationalism - المترجم) وفلاسفة ومدارس فكرية كالمعتزلة مثلاً، والفارابي، كما أن الحركات التقدمية في تاريخ العرب والإسلام كانت نشيطة.

وكانت المرحلة الجديدة القاسية في نضال العرب من أجل الحرية قد بدأت منذ مطلع القرن التاسع عشر، عندما طرحت القوى الاستعمارية نفسها كوريثة للدول العثمانية، (الرجل المريض)، عندما كانت جيوش نابليون قد غزت مصر وسوريا غداة تحول القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر، وبعد ذلك بسنوات قليلة، هددت السفن الحربية البريطانية سواحل البحر الأحمر والخليج العربي. وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى، كان الشمال الأفريقي بأسره قد سقط في قبضة الاستعمار الفرنسي والبريطاني والإيطالي، بينما كان المشرق العربي قد غدا مسرحاً للعمليات الحربية للقوى الإمبريالية في مسعى تقسيم جديد للعالم.

لقد كان الوضع الجديد الذي تمكن فيه المستعمرون والإمبرياليون من ترسيخ أقدامهم، كان دافعاً من أجل ثورة العرب ضد الأعداء الجدد الأقوياء سواء في الجزائر بقيادة القائد العظيم عبد القادر الجزائري، أو في الجبال الوعرة للمغرب (مراكش) الريف، أو في جبل العرب (سورية)، أو على حافة الصحراء الليبية، أو في المدن العربية الكبيرة حيث يعم الفقر، أو على ضفاف النيل بقيادة أحمد عرابي. ففي كل مكان هبت فيه الجماهير العربية بالنضال من أجل الحرية مقدمين ضحايا يصعب تقديرها في نضال غير متكافئ مع عدو ذي تسليح متفوق. ولم تكن كل هذه لتنتهي العرب عن نضالهم، بل وأن كل ذلك مثل في النهاية الطريق إلى النجاح. ونقطة الانطلاق لحركة التحرر العربية المعادية للاستعمار التي نالت دعماً مهماً بعد ثورة أكتوبر 1917 مستفيدة من التناقض والصراع بين الاشتراكية والإمبريالية. ومن المنطقي أيضاً، أن النضالات الداخلية التي كانت تشهدها

الأقطار العربية، أدخل ظل ذلك العرب في الخمسينات والستينات من هذا القرن في مرحلة جديدة.

وقد تميزت هذه المرحلة ببرزو أقطار عربية ذات توجهات تقدمية حققت مكتسبات هامة لحركة التحرر العربية التي بدأت نمطاً جديداً من النضال من أجل التحرر من الإمبريالية والتي هي علامة هامة في أتساع النضال العالمي ضمن العملية الثورية برمتها، وفي ذلك تقدم الشعوب العربية التي كانت في الماضي كنزاً للأفكار الإنسانية، واليوم يجددون مساهمتهم من أجل التقدم الاجتماعي، وقد اكتسبوا تجارب جديدة ضمواها إلى تجارب الماضي.

عملاقة هي المهمات التي تواجهها الأقطار العربية المتحررة، والطريق أمامها طويل وملئ بالمخاطر، وإن محاولات الإمبريالية من خلال تكاتفها وزجها لأدوات جديده بالإضافة إلى القديمة، وأساليب توسع جديدة مستخدمة القوة العسكرية المتفوقة للرجعية لتمارسها ضد الأقطار العربية التي تمكنت فعلاً من تحقيق نجاحات على كافة الأصعدة الاجتماعية، وهي تعمل من أجل إزاحة القوة التقدمية العربية واستخدام الأقطار العربية في مخططاتها التوسعية العدوانية.

إن مؤلفي هذا الكتاب، علماء، أساتذة، مدرسين مختصين في شؤون الأقطار العربية في قسم أفريقيا والشرق الأوسط بجامعة لايبزج، وهم إذ يقدمون هذا العمل "تاريخ العرب" باللغة الألمانية لأول مرة انطلاقاً من المادية التاريخية، ومساهمة من المختصين بالشؤون العربية في جمهورية ألمانيا الديمقراطية، مساهمة في المجهود الفكري للعلماء العرب في مجال العلوم الاجتماعية، من أجل تحقيق صورة دقيقة عن التاريخ، وإنهم يهدون هذا الكتاب إلى الشعب العربي الشجاع، المجتهد، المحب للسلام، وإلى العبقريّة العربية وإلى المناضلين من أجل تحرير بلادهم من الغرباء القادمين من الخارج، هذا الشعب الذي يبني اليوم حياة جديدة.

إن مجموعة المؤلفين يعدون ذلك أمنية خاصة، أن يساهم هذا العمل في إنارة الطريق أما التواصل التاريخي للتطور الاجتماعي في نضال العرب ضد المغتصبين، وأن يكتسب نضالهم من أجل التقدم الحضاري والثقافي أفضل الفرص للنجاح.

نأمل أن يجد هذا العمل الاهتمام من الجمهور وكذلك النقد.

لوثر راتمان

لايبزج / شباط - فبراير / 1971

هذه مقدمة موسوعة تاريخ العرب بأجزاء سبعة من عمل فريق المؤلفين من أساتذة جامعة لايبزج بألمانيا، قمنا بترجمة أجزاءه الأربعة الأولى:

د. ضرغام الدباغ

سابعاً : ملاحظات في دراسة القرآن

كان المستشرق الألماني ماكس هينيك Max Henning قد قام بترجمة القرآن الكريم، في ألمانيا وصفت بأنها ممتازة للقرآن الكريم، ومنذ ذلك الحين فإن هذه الترجمة قد اعتمدت على نطاق واسع في ألمانيا (شرقاً وغرباً) بوصفها أفضل ترجمة للقرآن. كما أن السيد هينيك قد قام بترجمات في مجالات بحث أخرى أطلعنا عليها، منها ترجمته الممتازة لدستور المدينة (الصحيفة) الذي قدمه الرسول (ص) لشعب يثرب (المدينة) غداة هجرته إليها.

وقد حصلنا على هذه الطبعة الحديثة المترجمة للقرآن، وهي من ترجمة السيد هينيك أيضاً، الصادرة عن دار نشر ريكلام / شتوتغارت Reclam Stuttgart بألمانيا الاتحادية. وقد تصدرت هذه الطبعة، تحت عنوان (مقدمة وملاحظات)، مداخلة مهمة للبروفسورة الألمانية المعروفة على نطاق واسع أنا ماريما شيميل AnneMaria Schimmel، وهي ملاحظات مهمة تستحق الترجمة وتقديمها للقراء. وجدير بالذكر أن الطبعة الأولى لهذه الترجمة صدرت في مطلع القرن العشرين، ربما في العشرينات. ولكن هناك الكثير من المراجع الهامة بعضها قد نشر في القرن السادس عشر أو السابع عشر وبلغات عديدة، ألمانية وإنكليزية وفرنسية.

المترجم/ د. ضرغام عبد الله الدباغ

* * * *

" القرآن "

يحتوي القرآن، الذي نشره محمد ودعا إليه، النواة التي أصبحت الأساس لعموم الحياة الإسلامية، يحتوي على قواعد للالتزامات الدينية حتى المسائل الفنية، وقد عبر غوته (يوهان فولفجانج غوته) حول الشكل والأسلوب الذي جاء به القرآن:

" صارم، قوي، ذو رهبة، وفي بعض مقاطعه عظيم الصديق والاستقامة" وفي جميع صفحاته يثير اهتمام علماء وأساتذة حتى من خارج العالم الإسلامي، وقراء يقرأونه ويتعلمون ويتعرفون على هذا الكتاب، ولهؤلاء نقدم هذه الطبعة من ترجمة ماكس هينيك التي تعد حتى اليوم أفضل ترجمة ألمانية، وفي ذلك خدمة للقراء.

وهناك مقدمة وملاحظات للبروفسورة أنا ماريما شيميل في مداخلة مهمة عن أهمية القرآن.

* دار النشر / فيليب ريكلام
شتوتغارت

المقدمة

من عام لعام تتكاثف الصلات والعلاقات بين أوروبا والبلدان الإسلامية التي تمتد كحزام من غرب أفريقيا حتى الفلبين، وتتزايد كذلك بصفة أسطورية أعداد الذين يتعرفون على الثقافة الإسلامية، عدا الرحلات والاتصالات الشخصية. وتتنامى لدى العديد من هؤلاء الرغبة في إلقاء نظرة على اصل هذه الثقافة، والقرآن الذي وفر الأساس للحياة والفكر لدى المسلمين منذ 1300 سنة وحتى اليوم.

لم تكن هناك في الأزمنة الأخيرة ترجمة ميسورة، موثوقة علمياً للقرآن، لذلك قررت دار النشر (ريكلام) إعادة طبع وإصدار الترجمة المعروفة والموثوقة لماكس هينيك، التي ظهرت في عالم المكتبات منذ سنتين عاماً، وهو صاحب الترجمات الجديرة بالاحترام والثقة والتي تلقى مكانة خاصة لدى علماء وخبراء الإسلاميات، منهم البروفسور حميد الله (أستامبول - باريس) الذي قيم هذه الترجمة بوصفها أفضل ترجمة مطبوعة للقرآن، لذلك أعيد طبع هذه الترجمة حرفياً دون أحداث أي تغييرات.

وقد جرت مراجعة الملاحظات والمصطلحات بدقة، كما جرى أحياناً إكمالها وتصحيحها، أو تحسينها، ولكن ذلك لم يكن إلا بقصد تقديم أفضل ترجمة للقارئ الألماني. ومن أجل إيضاح أي تأثير للقرآن حتى يومنا هذا على حياة المسلمين، وإبراز أي فاعلية عميقة كامنة في القرآن منذ القرن السابع وحتى اليوم على جميع الأصعدة، للقراء الذين لهم إطلاع على تفسير القرآن أو هؤلاء الذين على تماس مع قضايا ودراسات تخصصية. ووضعنا قائمة بالأعمال المهمة من بين المراجع الكثيرة جداً.

إن المراجع ودار النشر يعتقدان، بأنه ومن خلال هذه الطبعة الجديدة، إنما يليان الحاجة ويقدمان المساهمة من أجل فهم أفضل في محادثاتنا مع المسلمين.

البروفسورة
أنا ماريا شيميل

ملاحظات البروفسورة أنا ماريا شيميل

في عام 1955 سأل بعض طلاب كلية الشريعة في أنقرة أستاذهم في مادة قراءة القرآن (المقصود على الأرجح الترتيل التجويد - المترجم) في الإنشاد الجميل لفضلاً عند تلاوة القرآن، مدعين أن طريقة لفضه لا تماثل قواعد اللغة العربية.

" ولكن القرآن ليس عربياً " قال بفرع " بل أنه كلام الله، كيف تريدون أن تقارنوا ذلك مع قواعد اللغة العربية ؟ " .

هذا المشهد الصغير، اظهر الإيمان الفوق طبيعي للقرآن، والعصمة المطلقة التي ما زالت حتى اليوم من البديهيات لكل مسلم، الذي ربما كان يفهم النصوص المقدسة أو أنه قادر على سماع الكلمات أو قراءتها، وأن يرسم كتابة كلماتها.

ترى كم متناسبة هذه الشهادة مع هذا النفوذ ..؟ محمد المكي المنحدر من قبيلة قريش، الذي نما وترعرع ضمن أجواء نظام العبادة الوثنية المتعددة، كان يبحث عن ديانة راقية في تأملاته في غار (كهف) قرب مكة يدعى غار حراء، نهض بإسناد ودعم وثقة من زوجته أكتسب القناعة كذئير ومحذر من انحراف أبناء جلدته من الضلال والكفر.

هكذا ابتدأ بالدعوة إلى ما كان يستمع إليه من صوت الملائكة(الروح المعتمدة): كلمات بالحساب المهدد للذين يقضون حياتهم في الطيش والمجون، يخبرهم بالأهوال الفظيعة المنتظرة في الآخرة، وسوف لن تنقذهم سوى رحمة الله للذين يهتدون ويعودون لله. وقد تحولت لهجة الإنذار مع مضي الوقت، إلى أكثر قوة في وصف الله ذو القدرة والسلطة، الذي يهب الحياة من خلال كلمة (كن) فقط فيكون، هو الذي يحي الصحاري بالمطر وهو الذي يحي الموتى بعد موتهم، وسخر من تجار مكة الذين كانت لهم مكانتهم ومهابتهم، بأن عبادتهم للأصنام والأوثان إنما هي كفر وخطيئة كبيرة، وإن الله الذي هو الخالق والحاكم لا يمكن أن يكون إلا واحداً، وهذا الله الواحد وهذه القدرات ترد في القرآن في عدد كبير من الأوصاف، فهو الأول والأخير، الذي يسمع ويرى، هو المحب وهو القاهر، وهو الرحمن وهو الرحيم، والمسلمون يعدون هذه الصفات في تسعة وتسعين اسماً وهي أسماء الله الحسنى.

وفي السنوات الأخيرة من نشاط محمد في مكة، في سنة الأربعين(حوالي 610 م) بدأ بالدعوة، وذلك بالإشارة إلى دعوات الأنبياء الذين سبقوه، والذين مثله، لم يصدقه أبناء بلادهم ولم يعترفوا بدعوتهم، فابتلعتهم الأرض. ومن هؤلاء الأنبياء، يبتدأ بإبراهيم ثم إسماعيل الذي أصبح أب العرب، وتكمن أهمية كبيرة في تطور الإيمان لمحمد، لهؤلاء المؤمنين الذين لا يهتمهم الشمس والقمر ويسلمون قيادهم له ولكنهم يتاثرون بحقيقة إيمانية، بما هي أقدم من اليهودية والمسيحية، بأب البشرية الأول: آدم الذي تتحني له الملائكة، لأن الله علمه الأسماء، وبذلك أعطاه السلطة على الأشياء، وهو بحسب التعاليم القرآنية التي لا تعرف الخطيئة الموروثة، وقد نصب الله خليفة على الأرض، والذين سيأتون من بعده سيسرون على الصراط المستقيم ويستمتعون بطيبات العالم، ثم يعيدون كل شيء إلى سيد الكل.

وفي قصص القرآن هناك أيضاً نوح وإدريس وموسى، الرجل الذي تحدث مع الرب، ثم يوسف الذي طالما كانت هيئته مادة للشعراء والمتصوفين بوصفه آية للحسن والجمال الإلهي، والصابر أيوب، داود، سليمان، وآخرون، إلى المسيح ابن السيدة العذراء مريم، الحي الباقي وهو آخر الأنبياء قبل محمد.

وعندما فقد محمد عام 619 زوجته المخلصة (خديجة)، ثم عمه الذي كان يوفر له الحماية من أعدائه في مكة، وغدا موقفه حرجاً. وبعد مفاوضات مع سكان بلدة يثرب التي تقع

شمال مكة، هاجر الرسول إليها بعد أن كان أنصاره قد سبقوه إليها، وقد حدث ذلك عام 622م. ومنذ ذلك الحين أطلق عليها أسم المدينة، وأصبحت مقراً للنبي، وبعد هجرته إلى المدينة أستمرو بالدعوة وظهرت قدراته بصورة أوفر، وكذلك شخصيته التشريعية، وفي غضون ذلك كان محمد قد أصبح زعيم جماعة (عصبة) وسياسياً وواضع قوانين.

ومما نشر فيما بعد، نتعرف على نضالات المسلمين ضد أعدائهم المكيين، انتصاراتهم وهزائمهم. والهدنة(الحديبية)، ثم العودة السعيدة بعودة النبي المنتصرة إلى مدينته مكة عام 630م والنزاع مع اليهود في المدينة والواحات القريبة منها، وكذلك المواقف المحرجة التي واجهت النبي الذي تزوج بعد وفاة خديجة عدداً من النساء، لذلك فقد دار الحديث كثيراً عن قضايا وأحكام الزواج والطلاق.

وبحسب اعتقاد محمد، وما ورد في القرآن، هناك أخبار الأنبياء في الكتب: موسى في التوراة، وداود في المزامير، والمسيح في الإنجيل، وما تعلمت شعوبهم منهم، فإن العرب قد تلقوا قبل ذلك في لغتهم، لذلك فإن القرآن أرسل في ليلة القدر من شهر رمضان الذي هو الشهر التاسع من السنة القمرية. وقد أصبح هذا الشهر مقدساً وشهر احتفالات بوصفه شهد حدثاً فريداً (نزول القرآن - سورة القدر).

ولم يكن النزول في بداياته ينطوي على تطور، بيد أن الرؤى توالى فيما بعد، وهي تنطوي على الحكمة الإلهية، ومكتوبة بلغة قومه، ومما عليه الآن سوى مواصلة إعلانها والدعوة إليها. ونزول الوحي كان بالنسبة له أعجوبة، وعندما طالبه المكيون يأتيان المعجزات كما فعل الأنبياء من قبله، أشار إليهم بالآيات القرآنية كمعجزات، هي تلك الكلمات التي لا يمكن لأي فرد (هكذا كما في القرآن) أن يأتي بمثلها أو ما يشابهها.

محمد (هكذا يؤكد القرآن) ليس بشاعر، والوحي لم يكن مكتوباً على طريقة العروض أو القوافي التي كانت متطورة حتى في تلك الأيام، قبل الإسلام، كأنماط شعرية، بل بأسلوب الشعر المنثور وبجمل قصيرة كما يستخدمها العرافين في جميع الأزمنة، ثم لاحقاً أصبحت الجمل أطول، والنصوص حول يوم القيامة أصبحت أقل وروداً، والصيغات الشعرية أصبحت استخداماتها أكثر حرة، أدت إلى نصوص نادرة، ومثل ذلك نجده في نصوص السورة رقم 55 من سورة الرحمن، أما بالنسبة للمسلمين، فهي لغة لا يمكن الارتقاء إلى مستواها وكذلك في سعتها والتوافق اللفظي (الهارموني) فيها، وقدرة التأثير وكذلك ثرائها المتعدد الوجوه، هي البرهان والدليل القوي على أنها من الله.

القرآن في محتواه وغايته: صارم، عظيم، مخيف، ينطوي على حقائق لا يرتقي إليها الشك في موضع. وبذلك يختلف عن الآخرين، ولا ينبغي أن يتعجب أحد من قوة وفاعلية القرآن. وقد صاغ أستاذ مصري وجهة نظره حول أسلوب الكتاب المقدس (القرآن) بما يلي:

إن صياغة القرآن يعكس نعومة واستقرار حياة المدنية، وخشونة البدو، إذ ينطوي في أن واحد على حلاوة البداية وقوة النهاية.

* **إيقاع الكلمات:** (نهايات الكلمات)، يمكن اعتبارها نثراً، والقليل منه شعراً، والوقفات ليست نثراً ولا شعراً، وإنما على شكل إيقاعات هارمونية (متوافقة) متناسقة.

*** الكلمات المختارة:** ليست مبتذلة أو نادرة ولكنها تمنح انطبعا يوحى بالنبيل.

*** الجمل تمنح انطبعا:** بنوع مثير للاستغراب، إن العدد القليل من الكلمات مستخدمة من أجل إيضاح الأفكار في المحيط الخارجي.

*** الخطاب القرآني:** هو بوضوح فوق بشري، لأنه يخرق القوانين والقواعد النفسية، ولأن العقل والمشاعر على علاقة متضادة مع بعضها البعض. في القرآن نجد تعاون وثيق دائم بين هاتين القويين المتضادتين، إذ أننا نجد في البواعث التاريخية، عقائد وقوانين وكذلك مبادئ أخلاقية. إن الكلمات لها بالإضافة إلى الدروس المقنعة، قوتها العاطفية... ونجد عندما نمضي في ملاحظة البناء الهيكلي لأحدى السور، والقرآن بأسره، نجد أن هناك خطة لا يستطيع بشر أن يضعها أو يخترعها.

والحقيقة فإن الكثير من قصص الأنبياء في القرآن، من العهد القديم (التوراة) ومن حياة السيد المسيح، لم تكن تعني لمحمد سوى مصادقة (ملائمة) مع التعاليم التي أكدها بوصفها حقائق قديمة كانت قد نالت حظها من الانتشار، وأكثر من ذلك، وحيث وخالفت دعوته النصوص اليهودية والمسيحية، فالأمر بالنسبة له (وكذلك لأي مسلم) واضح، أن الشعوب الأخرى قد زورت ما أنزل عليها، وإن الإيمان والاعتقاد لدى محمد ومعلوماته الشخصية هي التي استلهمها كلمة فكلمة من الله، وهي الخاتمة (خاتمة الكتب) وفيه (القرآن) كل الخلاصات والحقائق المنقحة والمصوبة، بما لا يدع بالطبع أي شك في حقائق الدعوة الإسلامية القرآنية. وبالنسبة لأي مسلم فإنه من غير الممكن أن يكذب أحد الأنبياء أو يكذب دعوته ورسالته. لذلك هناك مثال واحد استثناء من ذلك، هو عدم قبول المسلم بصلب المسيح (وهو ما لم يعترف به الإسلام)، فإن القيمة التاريخية للعهد الجديد (الإنجيل) قد قبلت بوصفها رسالة إلهية. وبالنسبة للمسلمين المؤمنين، فإن تعديلات وعبث بالنصوص المسيحية قد حدث على يد البشر، كما أن المسلمين أكدوا على ولادة السيدة مريم العذراء ودافعوا عن الشكوك الموجهة إليها من الليبراليين.

والقصص الكثيرة في العهد القديم (التوراة) وفي العهد الجديد (الإنجيل) موجودة في القرآن، كانت (وربما لا تزال - المترجم) موضع نزاع بين اللاهوتيين المسيحيين وعلماء المسلمين. وكقاعدة، فإن محمداً كان قد حصل على قليل أو كثير من المعارف من أعراب كانوا قد انتموا إلى اليهودية أو المسيحية في فترة الانتقال من القرن السادس إلى السابع الميلادي. وكان ذلك من تأثيرات إيران والإمبراطورية الرومانية الشرقية والفساطرة والموحدين والزهاد المسيحيين في خلواتهم الصحراوية وكانوا عرباً كما تظهر لنا الأشعار، ولم يكن هناك أعراب. كما أن العلاقات التجارية مع الولايات السورية (سوريا الطبيعية) وكذلك مع العراق، ساهمت بذلك أيضا بالإضافة إلى المعارف والاعتقادات التوحيدية (الإيمانية).

ووصل إشعاع وتيار المسيحية حتى مكة، ومن الجهة الأخرى كان ملوك الجنوب العربي قد دخلوا اليهودية في القرن السادس الميلادي، وكانت مستوطنات يهودية قد تأسست في أرجاء مختلفة من الجزيرة العربية. وهكذا كان هناك نفوذ وتأثير يحوم في أجواء المنطقة، وقد سخر اليهود في المدينة من النبي بسبب عدم وضوح تصوره عن الأشخاص في العهد القديم (التوراة)، كذلك كهذه المزاعم أو اقتباسات أو نقل نصوص مغلوطة. الخ التي لعبت دوراً مهماً في الجدالات مع المسلمين وشكلت مادة للريفوت (Refutatio) (وهي التسمية التي أطلقها المسيحيون الجزويت على الترجمة اللاتينية للقرآن) التي

ظهرت عام 1698 وقد تمت الإفادة منها كدليل " إن محمداً قد استخدم بشكل خاطئ الحقائق من الأديان الأخرى" "هيردر" (عالم وأديب ألماني 1744 - 1803 - المترجم) والنقاش حول عما كان محمد قد أقتبسه من اليهودية ليس من القصص فحسب، بل من عموم التصورات الإيمانية ومن الطقوس الدينية، وقد تسبب في ظهور أعداد كبيرة من الأعمال (مثل أعمال ومؤلفات هيرش فيلد، هوروفيتش، كايكر، توري، كاتش، فيما كان التأثير المسيحي على نشوء الإسلام موضوعياً كان مؤكداً ولكنه غير مباشر) (استقاء أفكار). (*)

وكذلك التأثيرات الإيرانية المحتملة، والسببية (ربما المقصود الصابئة - المترجم) وهناك بالطبع أيضا المؤثرات العربية القديمة التي كان لها تأثيرها على القرآن وعلى النظام الإيراني فيه، والتأثيرات المصرية القديمة، كما أننا يجب أن لا ننسى أبداً، أن ليست هناك ديانة تنشأ من لا شيء، بل أن كل ديانة إنما هي مرتبطة بما قبلها من نظام اعتقادات، وإنها تتلاءم مع لغتها وتصورها من أجل أن تكون مفهومة وليس ذلك ما يأخذه قائد الدين الجديد من القديم، بل كيفية صياغة توجه جديد والتركيب الجديدة، وتلك هي المسألة الأهم.

وبالنسبة للمسلم الورع (المؤمن)، نادراً ما تطرح أسئلة كهذه، وعندما يسلم فعلاً بمادة غريبة، أو عندما يتعين عليه ذلك، فهو لا يفعل ذلك بمعنى التأكيد فقط، لما ذهبت إليه العقائد الإسلامية، والدعوات الأخرى عامة، ولكنه يدافع عن العقائد الإسلامية. ومحمد عبد الله دراز أستاذ الدراسات القرآنية في أقدم جامعة في العالم الإسلامي، الأزهر في القاهرة، والذي عرضنا رأيه حول أسلوب القرآن، فيقول في أحدث مقالة له، "أنه لا يقبل بإمكانية وجود نفوذ أو تأثير أجنبي"، بل رد بحدّة على الآراء التي تقول، أن القرآن هو أفكار النبي سطرها في القرآن، ذلك أنه نفسه (الرسول) لم تكن لديه أفكار من الأديان والقضايا التشريعية قبل أن يتسلم الدعوة.

" ودرجة معينة كانت الحكمة قد استطاعت أن تظهر له، عبث وأباطيل عبادة الأوثان وعدم منطقية الخرافات، ولكن كيف استطاع (محمد) أن يعرفها وأن يستبدها؟ ولكن ليس بمجرد التفكير يمكن وصف حقائق ومعارف وأحداث قد جرى حدوثها، والقرآن هو بالتأكيد دائماً على اتفاق تام مع معطيات وحقائق الأنجيل، وحتى تلك التي لم تكن معروفة لمحمد".

والدعوة (الوحي) التي رافقت محمد منذ أن كان سنه 40 عاماً تقريباً (610) حتى ما يقرب من وفاته (632) والنصوص القرآنية حفظت من قبل أتباعه عن ظهر قلب كما كتبت أيضاً بعد وفاة محمد جرى جمع هذه القطع، وكامن هناك بعض الآيات مكتوبة بلغة عربية غير واضحة بدقة. ففي عهد الخليفة الثالث عثمان (644 - 656) حيث تم جمع وكتابة نسخ كاملة ومقبولة للقرآن إلى جانب النسخ الأخرى التي أخرجت من قيد الاستخدام، ولكن ظل هناك واجب مهم وهو ذكر خيارات النصوص (المعاني والتفسير - المترجم).

إن ترتيب السور يتبع أسلوباً في غاية البساطة ونظام نادر الاستخدام: فهي مرتبة بطريقة أطول السور فأقصرها. والسور التي نزلت في أوائل الوحي، قصيرة عادة، بينما كانت السور المدنية (التي نزلت في المدينة) هي جمل طويلة. ولم يعمل بالمبدأ الكرونولوجي Chronologie (مبدأ التسلسل التاريخي - المترجم). ومن المؤكد، أنه ليس من المستحيل، مع بذل جهد تاريخي وبحوث لإعادة تسلسل السور حسب تسلسل نزولها

الأصلي. وقد أشر نظام أبحاث نولدكة (مستشرق ألماني معروف - المترجم) الطريق إلى ذلك، ومن ثم واصل باحثون آخرون أبحاثه. ومع أن من المؤكد وحتى من وجهة نظر التفسير الفلسفي لا يمكن حل كافة المشاكل، حتى بمساعدة أفضل المستشرقين. وقد أشار بيتر R. Peter مؤخراً إلى ذلك، أن طبقات القرآن تشير غالباً في بداية كل سورة إلى مكان نزولها، مكية أم مدنية. ونجد أحياناً تحول من موضوع لآخر ضمن السورة الواحدة، وقد يختلف نظام الترتيب. و يصادف المرء صعوبات كهذه في الفحص والتدقيق في كتب الأنبياء القديمة. وقام بعض الأساتذة الأوربيين في ترجماتهم للقرآن، بالعمل حسب التسلسل التاريخي الكرونولوجي (مثل بيل Bell وبلاشير Blachere).

إن معرفة أصل السورة وتسلسلها هو أمر مهم جداً، إذ أن معاني بعض الانطباعات مؤجله، وأن بعض الآيات سوف تتضح وتصحح فيما بعد في الآيات اللاحقة، فعلى سبيل المثال، أن النبيذ قد وصف كعطاء من الله، ولكن وبسبب آثاره الخطيرة قد منع فيما بعد، وهذه انتقادات وجهت إلى التأرجح والتردد في مثل هذه الظاهرة الإنسانية لا تقلق المسلمين المؤمنين. (راجع سورة يونس/2، وكذلك سورة النحل/101).

والسور تفتتح بالفاتحة، وهي كالصلاة الربانية(عند المسيحيين) وهي صلاة بسيطة يؤديها كل مسلم في صلاته اليومية الإلزامية، وكذلك عند الصلاة على الميت وهي من أهم الواجبات في الإسلام وأنه السلوك الصحيح المطلوب لسلوك صراط المستقيم. والخاتمة (خاتمة القرآن) تمثلها السورتان القصيرتان (المعوذتان 114/113) اللتان تحميان من الخبيث ومن الشر، بينما الخاتمة للسورة 112، وهي سورة توحيد الله المطلقة، سورة تلعب دوراً يصعب تقديره في الشريعة والتصوف، كما في حجج الجدل والمناقشات، في إيمان الشعب والفلسفة.

وفي بداية السورة 29(العنكبوت) هناك مجموعة غامضة من الحروف يحتمل أن تكون إشارات خاصة إلى مجموعات لمالكي النسخ، ولكنها قد تعني أشياء أخرى أيضاً حيث يفترض المرء أنها تنطوي على مغزى عميق أو غامض. فعلى سبيل المثال سورة طه أو سورة ياسين حيث لم يحل لغزها بعد. وأسماء أو عناوين السور قد وضعت فيما بعد، وكل سورة تبدأ بكلمة الله والصيغة الرسمية هي: بسم الله الرحمن الرحيم (واردة في النص بحروف لاتينية - المترجم) أو عند قراءة للقرآن أو حتى الآية واحدة من آياته، ويجب على كل مسلم أن لا ينسى ذلك، كما عليه أن يفعل ذلك مع أي عمل يبدأ به.

وإنه لأمر مفهوم، بأنه وبعد وفاة محمد الذي كان صاحب الرسالة، أن يكون لذلك أهمية خطيرة لا يمكن قياسها للجماعة، إذ اتسعت الدولة وانطلقت بسرعة إلى آسيا ثم عبر مصر إلى شمال أفريقيا وإيران، بعد ثمانين سنة من الهجرة وصولاً إلى سواحل الأطلسي وإلى الهند ثم إلى أرجاء عديدة بعيدة. وكان لذلك أهميته، إذ يجد المرء كل الأسس للمواقف الدينية، لقيادة الدولة وكذلك للحياة الخاصة للناس، للدنيا والآخرة. وبالطبع كان هناك الكثير من المؤشرات ولكنها كانت ضئيلة ولا تفهم، إلا من خلال أوضاع ومواقف مادية ملموسة.

وينبغي على المرء أن يسأل الشخصيات التي كان الرسول يثق بها(الصحابية)، ما هو الموقف الصحيح حيال هذه أو تلك من الأحداث والقضايا من خلال وعرفتهم بأقوال وأفعال الرسول ومنها انبثق علم جديد، بما في ذلك أهم التصرفات والفعاليات الدينية مثل: الحج إلى مكة، وهو الفقرة أو العمود الخامس للإسلام(إلى جانب شهادة الإيمان، والصلاة

خمس مرات يومياً، صيام رمضان، الزكاة) والتي لم تفهم بشكل واضح إلا ممن خلال التعليمات والمؤشرات (السنة) التي أصدرها محمد وليس من خلال النصوص القرآنية.

إن الترجمة، على أن القرآن هو كلمات الله، كان بالنسبة للنبي وأنصاره أمراً بديهياً من خلال بعض الأدلة والبراهين في الوحي، كان قد تحول إلى مشكلة ثيولوجية (علم الشريعة) في القرن التاسع الميلادي كما برز ذلك بوضوح من خلال مدرسة المعتزلة والقضايا التي طرحتها. وقد أحتفظ القرآن بصفة كونه كلام الله، وكذلك كافة صفاته، وأنها ليست أزلية.

وقد وقفت الجهات المتعصبة أمامهم، وبعد صراع طويل بدا فيه أن المعتزلة قد ربخوا المعركة وتراجع الدوغماتيون من المحافظون والتقليديون، وأن أفكار المعتزلة قد قبلت "ذلك ما كان بين الطرفين حول قضية خلق القرآن". وهنا تدخل عاملان في هذا التطور، هو تعامل علماء الشريعة الإسلامية مع اللاهوت المسيحي. وكما أن المسيح يمثل مع الله كياناً واحداً أو هيئة واحدة، فكذلك القرآن بالنسبة للمسلمين فهو كلام الله الذي لم يوضح (غير مخلوق) وقد وعي إليه ونشر بواسطة محمد، وكما بالنسبة للمسيحية حيث تمثل ليلة الميلاد العيد الأكبر، كذلك تمثل ليلة القدر بالنسبة للمسلمين، وهي الليلة التي نزل فيها القرآن لأول مرة.

وكانطباع مؤيد لإرادة الله ووجوده، لا يمكن للقرآن أن يترجم إلى لغة أخرى، وبالنسبة للمسلمين، فإن الترجمة هي تقويض للفكر، ذلك أن القرآن ينطوي على كثير من الدقة والعمق: الجمال، سماوي، حكيم، إذ ينطوي على حكمة بحيث يستحيل تحويل الكلمة واستعادتها من خلال وسيط آخر عدا اللغة العربية غير ممكنة وغير مشروعة، لا بل أجتهد علماء شريعة أتراك قبل فترة قصيرة، ضد كتابة القرآن. وهناك ترجمة حديثة للقرآن باللغة الإنكليزية تحمل عنواناً رئيسياً "المعاني المجيدة في القرآن" The Meaning of the Glorious Koran (تجنباً لأعتبارها ترجمة حرفية للقرآن) والترجمات إلى لغات الشعوب الإسلامية، الفارسية، التركية، الأوردو... الخ، وهي مترافقة عادة مع النص الأصلي، وعلى الأغلب تكون الترجمة بين السطور.

ومن خلال ذلك كله، أكتسب القرآن أهمية هائلة لعموم الثقافة الإسلامية، وغدا المفتاح والمحرك للحياة الروحية الإسلامية في غرب أفريقيا حتى الفلبين وصعوبة ترجمته أرغمت الشعوب التي دخلت الإسلام على تعلم اللغة العربية، أو على الأقل الأخذ بالحروف العربية (للكتاباة والقراءة في لغتهم الوطنية)، لذلك توحدت حروف الكتابة في مجال الثقافة الإسلامية، اللغة العربية التي حروفها الساكنة تكتب فقط الحروف الطويلة الثلاثة: a, i, u

أما البقية فهناك إشارات حروف حيث تكفيها حروف قصيرة، التي لا تكتب في أكثر الجمل، أو فقط في الحالات الصعبة، ربما أنها لا تناسب الأتراك أو الفرس أو البربر أو الباشتون والماليزيين أو السنديين.

إن الأسلمة (أي الدخول إلى الإسلام) Islamisation، تعني توحيد الكتابة وهجوم عاصف للكلمات العربية وأنماط حديث في اللغة، تطور يواجهه منذ البداية حتى النهاية جوهرياً، توجهات الكبرياء الوطني، حتى تلك التي لا تعرف شيئاً عن اللغة العربية، وعليها على الأقل تعلم السور القصيرة من أجل إقامة الصلاة ولا سيما الفاتحة واسم الله

الذي لا بد من ذكره وكذلك حفظ (Hāfiz) أو الذين يستطيعون حفظ القرآن وإلقائها بتلحين مختلف (تجويد - تلاوة) وأغلب هؤلاء صبية في البلدان غير العربية يبدأون بحفظ القرآن عن ظهر قلب (مع أنهم يبدأون بعد سورة الفاتحة بالحفظ من آخر القرآن) لا يفهمون معنى الكلمات، وفن التجويد والإلقاء قد تطور بصفة فائقة وكذلك فأن المحايد (غير المنحاز) لا يستطيع الحكم طبعاً على جودة التجويد من حيث التفصيلات التقنية على الرغم من أنه يجده مثيراً وجذاباً بينما يطلق الجمع الواقف أو الجالس هنا وهناك صيحات الاستحسان بكلمة (الله) طويلة.

ومن أجل جعل مغزى القرآن مفهوماً للذين ليسوا عربياً، فقد تطورت القواعد (النحو والصرف) وكذلك قواميس اللغة والمعاجم والموسوعات بسبب الكتاب المقدس (القرآن) وكذلك في التطور المتنامي للتفسير، ونذكر هنا فقط التفسير ذو الثلاثين جزءاً للطبري في مطلع القرن العاشر الميلادي، وكذلك التفسير الشهير للزمخشري (الكشاف) وتفسير البيضاوي في 133 جزءاً وتفسير الجالين للسيوطي في القرن 15، وهذه صادرة باللغة العربية والتي شرحت ودرست القرآن فلسفياً وتاريخياً بدقة سورة اثر سورة، ثم أن هناك عدداً لا يحصى من التفاسير في لغات الشعوب الإسلامية (غير العربية) والمناقشات حول القرآن في مقاطع ومسائل تفصيلية.

وقد تابع الأستاذ كولد تسيهر Goldziher في محاضراته الأساسية الموسومة " اتجاهات في الدراسات الإسلامية للقرآن"، تابع هذه التطورات منذ بداياتها، وتعريف النصوص ومواصلة وسائل تحديثها وأجراء تفسيرات جديدة لما لم يعد مقبولاً، حدثت في العصور القديمة، وتدخلات الأجنحة المتشددة (المحافظة)، والوعاظ الذين لم يكونوا ليقبلوا أن يذكروا التفاصيل عن الجنة والجحيم التي لم ترد في النصوص (القرآن) إلا بإشارات تذكر بطرق جذابة للمستمعين.

ولكن حتى الفلاسفة حاولوا أن يفهموا القرآن حسبما يرتأون وعلى شاكلتهم وبصفة خاصة الصوفية الذين أخذوا من نصوص القرآن ما يناسب نظرتهم إليه، وبالتالي فقد بدا غريباً النظر إلى القرآن نظرة سطحية (خاطفة) لأول وهلة، مما يترك انطباعاً وكأنه دين معتدل رزين وهادئ، في حين لا يوجد فيه ما هو صوفي وغامض. وقد كان الورع وشدة التدين سبباً للنسك الإسلاميين الأوائل (المقصود المتعلقون بشدة بأهداب الدين - المترجم)، ومن شدة خشيتهم التخلي عن مهام القضاء إلى سادة المحاكم والدولة بسبب خوفهم من السقوط في الكفر والخطأ عند أجتهداتهم في تنفيذ تعليمات الصلاة والصيام والأفعال الحسنة، فقد كانوا يحاولون أن يجعلوا الممنوع والمسموح مما هو موجود في القرآن مقبولاً وعدلاً في أزمته، كما حاولوا دائماً الحفاظ على الصلة الحيوية مع القرآن.

ويحكى عن الصوفية الذي يعرف أحدهم 7000 تفسيراً لآية واحدة من القرآن، وإن ليلة كاملة بطولها لا تكفي لشرح آية واحدة من القرآن. وبالطبع فنحن نرى هنا أسرار لا سبيل لقارئ عادي إليها. ومن المؤكد أن هناك الكثير من السورة الآيات القرآنية أصبحت موضوعات مستحبة للمسلمين الورعين المتأملين والشعراء.

ومن أشهر الآيات والسور هي 172/ سورة الأعراف، وفيها يخاطب الرب الغير مخلوق ويشهد بأنه سيدهم، وهي الموضوعة المحببة للشعراء والتي منها يجدون تنويراً لحبهم وشوقهم الأبدي أو في سورة النور - (35) الله كنور السموات والأرض، أو في سورة البقرة - (2) المكتوبة بلغة جميلة في الكثير من المساجد، أو تلك الآية من سورة المائدة -

(54) " سوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه" وهي عند المؤمنين إشارة إلى محبة الله وعلامة لإمكانية المحبة المتبادلة بين الخالق والبشر. وكذلك الرؤى في السورة 53- النجم) وفيها الإشارة إلى سفرة محمد الليلية، 1/ الإسراء) والآية المعروفة أكثر من جميع الآيات، بأن كل المخلوقات هي لله وستعود إليه " إنا لله وإنا إليه راجعون - المترجم).

ومن خلال المجتهدين بالتحديد، تغلغت الرموز القرآنية عميقاً في الشعر العربي، وعلى كل لسان. وإن فهم هذا الشعر غالباً لا يمكن فهمه البتة بدون معرفة جيدة للقرآن، عندما يكون خد الحبيب، كالـيوم المضي"، هكذا على ضوء كلمات السورة 93/الضحى، عن الأنبياء وعن صفاتهم المميزة، عن المسيح، الجبال المتراقصة، حيث يكون على القارئ أن يجد الرسوم المماثلة من قصص القرآن(ومثل ذلك التشابه في الإنجيل أيضاً) وهذا ممكن ولكن بعد التمكن من اللغة القديمة، مع اقتباسات من الكتاب المقدس(الإنجيل) وكان ذلك الحال أيضاً في باكر عهد البروتستانت، وكذلك كان الحال مع كتب هومور(هوميروس / الأديب الإغريقي - المترجم) الذي كان من الصعب والناذر فهمه لشخص غير خبير في الرؤى الانعكاسية (التأويلات)، وهكذا فإن بوسع أي أقصوصة تركية شعبية حسب الدراويش البكداشية، الإجابة على هذا السؤال: لماذا لم يعمل بالآية القرآنية " لا تقربوا الصلاة"، لأن مواصلة الآية تقول " وأنتم سكارى""النساء / 43).

إن وضع القرآن الذي كان قوياً، (يقصد بوضع القرآن: الموقف، التفسير - المترجم) وكان مؤثراً أيضاً على الشعوب، وبديهيّاً على الفئات الإسلامية(الطوائف والمذاهب) التي قامت إليها الظروف. وهكذا يحاول الشيعة تفسير الكثير من الآيات القرآنية لصالح علي، ابن عم النبي وصهره، وبحسب أفكارهم حول الخلافة، وفي بعض الآيات ضد الخليفة الأول بعد الرسول(أبو بكر الصديق)، بغض النظر من أن الشيعة يعتقدون أن بعض الآيات التي حول دور علي قد حذفت من قبل الخلفاء الأوائل. إن التفسيرات القائمة على الاستعارة والتشبيه قد مضت بعيداً في عرض وتفسير القرآن إلي مذهب الإسماعيلية(الإمام الشيعي السابع) الذين لقبوا بالباطنية، الذين يعولون على المعنى الداخلي ويفهموه على طريقتهم ويضعون أتباع هذا المذهب على درجات من الوعي والإطلاع والعلم على أسرار آيات القرآن، حيث يكمن المغزى في النهاية خلفهم(أي حسب تأويلهم وحسب الهدف - المترجم).

وكل حركة إصلاحية في الإسلام كانت تعتمد أيضاً على القرآن وهداه(ربما يريد المقارنة مع الحركات الإصلاحية المسيحية - المترجم)، وعندما واجه العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر والعشرين المكاسب التكنيكية التي أحرزها الغرب، أرتفع في أماكن عديدة السؤال: ما هو مدى اتساع أو محدودية الصورة العالمية: انتظار يوم القيامة(الأخرة)، الإشارة إلى عادات الحياة(الحياة الشخصية للنبي) مع التطورات الحديثة للحضارة العالمية المدنية، وأن تكون مادة للمناقشة.

وقد بحثت أحدث الحركات التي انطلقت في مواجهة السلطة البريطانية في مصر وتركيا، ووجدت أفكارها في القرآن، وقد توصلوا إلى قناعات، إذ تمكن المسلمون في مجرى القرون، من إنجاز كمية هائلة من الكتب حول جوهر الإسلام البسيط، وكتب التفسير والشرح للكتاب المقدس(القرآن)، وهكذا فإن النفس الزاخرة بالحيوية والعمل الخلاق تسببت بخنق هذه الحركات، وقد كان مفترضاً، هكذا أدعى محدثون من جميع الاتجاهات، أكدوا على أن القرآن والدعوة كان الأساس الوحيد للإسلام (وبعضهم استبعد الكتب الدينية

الموروثة)، أكدوا على التفسير الصحيح، وإعطاء القرآن المكانة في كل حالة في الحياة الخاصة والسياسية في المجالات الدينية والاجتماعية.

وعندما لا يتوفق عالم حديث ومحدث أو شارح تقليدي للقرآن في عرض أفكاره، فإن الخطأ يثير الكثير من سوء الفهم حول القرآن، ويجد السير (لقب بريطاني) محمد إقبال الشاعر والفيلسوف الكبير في الإسلام والهند، والأب الروحي لباكستان، في كتابه "عالم القرآن" و"كتاب الأبدية" الدليل الوحيد الصحيح للفكر الإسلامي، وللتعامل بدون تردد، ويحاول أن يجد تفسيراً لأراء بيرجسون وأينشتاين في تفسير إيمانية من آيات الكتاب(القرآن).

وفيما إذا كانت اقتباسات وتفسيرات إقبال الفلسفية، وضعت الأساس المثير والمهم لرؤية إسلامية حديثة للعالم، فقد حاول مفسرون وشارح آخرون للقرآن إيجاد صلة وتفسير بين القرآن والضياء الكهربائي، بل وحتى مع القنبلة الذرية، وبذلك فقد أحرزت عملية تحديث الإسلام الكثير من المحاولات، وإلى ذلك المجهود ينتمي أيضاً محاولات كنتك التي قامت بها الحركة الأحمدية في محاولاتها لترجمة والنقل والاستعارات والاقتباس من القرآن، رموز وإشارات على يوم القيامة، بهدف تفسير عقلائي ومبسط، ويتبع ذلك إعطاء وصف لجمال وجاذبية النص للسورة ذات الإيقاع الشعري الراقى، مثل سورة التكويد، والذي يضم إشارات إلى المستقبل الذي فيه تحشر الحيوانات معاً، ويقصد بها حديقة الحيوانات، وهناك أكثر من ذلك بهذا المأل. والأحمدي هي الطائفة الإسلامية الوحيدة التي لم تجيز ترجمة القرآن فحسب، بل طالبت به على عكس التيار المحافظ.

وكان القرآن لقرون قد مثل الأساس أو القاعدة لكافة الاتجاهات الدينية والفلسفية، رموزاً غير قابلة للنضوب والاجتهاد والشعر، ووفرة المادة والسلوى للملايين من المؤمنين، حتى إذا كانوا لا يفهمون كلماته، كذلك فإن معانيه بالنسبة للفنون التشكيلية لا يمكن تقديرها. والإسلام لم يمض بعيداً في عرض النفس البشرية، وبتلك الزخارف والتهويل، وفن الأرابيسك والزخرفة بالرسم الهندسي، وأكثر من ذلك، فن الخط منذ القدم وحتى الآن يعتنى به في البلدان الإسلامية وكتابة كلام الله(القرآن) بأبداع الخطوط، كان من أبرز منجزات وإبداعات فن الخط. وقد أبتدع في القرون الأولى الخط الكوفي، ذو الزوايا، ثم يتصاعد ببطء من الخط المكتوب على الرق(الجلد)، سواء كتبت الحروف بزخرفة خطية، أو أنها كتبت آيات القرآن بخط رائع جميل، ثم حفرت(نحتت) على الحجر، أو على القيشاني ووضعت على البوابات، أو توجت بها قباب المساجد، أو على صفحات كبيرة لنسخ خاصة من القرآن قدمت لحكام أو لشخصيات مهمة بحروف متناسقة من خط الثلث أو النسخ، بحبر اسود وذهبي، أو مكتوبة بحرف دقيق لا يمكن فكها(قراءتها) إلا بواسطة عدسة. والصفحات الأولى منها (صفحتان - المترجم) مزينة بحروف عربية (أرابيسك) بالذهب، ومجلدة بجلد نفيس. وكل خطاط ومذهب(من يطلي بالذهب)، والعاملين في الموزائيك، مجلدي الكتب، كان يقدم أفضل ما يمكن فعله وما بوسعهم، ليعطي أفضل مظهر ذو قيمة لعمله، وكتب بأوامر الكثير من الحكام خلال القرون، نسخ رائعة فنياً من القرآن.

وكم من البيوت التي تعلق بدلاً عن الأشكال الفنية أو اللوحات، كتابات من القرآن في إطار، أو كتابة مزخرفة، التي ليست مكرسة فقط حول المغزى وشكل ومعنى الكتاب المقدس، بل وبنفس الوقت كوسيلة حماية وكتعويذة(تمائم) كما أن كثير من سواق سيارات التاكسي يتخذون نسخاً مصغرة جداً من القرآن كحماية ووقاية يضعونها على الزجاج

الأمامي لسياراتهم، وفي عدد كبير من البيوت نشاهد فوق سرير رب وربة البيت، القرآن في كيس جميل من الحرير يقدم الأمن والحماية لهذه الحياة الزوجية.

والقرآن يأمر أيضاً، أن لا يلمسه إلا من هو على نظيف (الطاهرون، على وضوء - المترجم) ويجب أن يحتفظ في مكان نظيف، ولا يحق لغير الطاهرين (النساء مثلاً في أيام معينة) أن يلمسوه، إلا بعد الطهارة الكبرى (الاجتسال التام - المترجم)، ولا يحق لنا مناقشة النصوص (في إطار النقد) إلا لمؤمن في طقوس طهارة. ومن أجل توثيق المكانة العالية للقرآن، على المرء أن يعتني به (على الأقل في تركيا) بوضع القرآن في الرف أو الطبقة العليا من المكتبة، وفي بيوت الفلاحين ويعلق بعناية داخل محفظة، كما يجب أن يقبل القرآن قبل فتحه. (على الأرجح فإن الأستاذة شيميل، تنقل مشاهداتها الشخصية في تركيا). وهنا فإن الإيمان بكلام الله بين دفتي الكتاب يقود حتى آخر مدى في تبعاته، لذلك يطبع القرآن اليوم في تركيا بوسائل طباعية راقية سواء من حيث ترتيب الحروف والسور وتقسيم الصفحات، وربما تقسيم الصفحات وإعطاء المجال للتفسير. ومثل هذه المبادرات كانت تواجه من التيارات المحافظة بقوة، وساد الاعتقاد لفترة أن أي تغيير في ترتيب القرآن يؤدي إلى التحريف.

وقد مارس الكثير السحر باسم القرآن (وربما التنجيم، مع أن الإسلام يقف بصراحة ضد محاولات كهذه - المترجم)، فيما مثلت كلمات الله في القرآن قوة وفاعلية عند المسلم سواء فهمها أو لم يفهمها، وتفسير هذه السورة أم تلك. أو تكرارها بعض الآيات ثلاث، سبع، أربعين مرة، بالنسبة للمسلم هي بمثابة عمل وواجب، وقد تكون لإيفاء نذر بقوله " إذا حدث هذا أو ذاك فسوف أتلو سورة ياسين أربعين مرة " ويأسين هي السورة 36 من القرآن، وتقرأ بالدرجة الأولى للموتى، ولكنها تصلح أيضاً بوصفها ذات فاعلية خاصة.

وهكذا تتأسس الحياة الإسلامية في كافة تعبيراتها على القرآن. إن ترجمة أو تفسير وضع من قبل شخص غير مسلم، يصعب أن يترك لديه انطباع عن السلطة أو القوة كما يتركه هذا الكتاب على حوالي 350 مليون مسلم (لا شك أن الكاتبة تعتمد على أخصائية قديمة لأعداد المسلمين في العالم، حيث تبلغ اليوم المليار والنصف نسمة - المترجم).

وفي العقود الأخيرة، فقد جرى بالتأكيد تحول في بلداننا الغربية من تفهم حيال الثقافة الإسلامية. وعبر أستاذ فرنسي وهو : د. ماسون D. Masson قبل فترة قصيرة من خلال إجراء مقارنة دقيقة ما ورد في القرآن من تعاليم حول : الله، الخليفة، الحياة الأخرى، النبوة، وكذلك أيضاً التعاليم اليهودية والمسيحية كأساس من أجل تفهم أفضل بين الديانات الكبرى الثلاث التي فيها بالتأكيد جذر مشترك، وأن اهتمام الديانات الثلاثة وهي (بحسب رأي ماسون) تؤكد بحق أنها تبين للبشر، أن كل شيء إنما جاء إلينا من الله وإنه إليه لراجع.

وإذا وجد القارئ الألماني الصعوبة في التلقي، ربما من خلال المشكلات الكثيرة، القانونية، السياسية، والطبيعية الخاصة جداً الموجودة في القرآن، إلى جانب الأفكار الرئيسية، ولكنها بالنسبة للمسلم ليست سوى تعبيرات عن حياته ولا بد أن تكون بالتوافق مع إرادة الله، إرادة لا يمكن بعدها أن يسأل المرء شيئاً، وإذا كانت هذه ذات وقع غريب على شعورنا وعلى محيطنا الديني واليومي، ربما تحيره، لذلك فإنه أمر جيد هنا أن نتذكر غوته (يوهان فولفكانك غوته): أديب وشاعر ألمانيا الأكبر، معروف بتعاطفه الشديد

مع الإسلام، وإعجابه بالرسول محمد - المترجم) الذي وصف القرآن في كتابه " ملاحظات ومعالجات للديوان الغربي - الشرقي:

الاعتقاد أو عدم الاعتقاد يتقاسمان في الأعلى والأسفل، السماء والجحيم هما الإقرار والأفكار، أحكام تفصيلية، مسموحات، قصص رائعة للديانة اليهودية والمسيحية، إسهاب وتفاصيل من جميع الأنواع، إطناب لا حدود له واستنادات تشكل جسم هذا الكتاب المقدس، الذي نذهب إليه وقتما نشاء، ودائماً نفر من جديد، ولكن دائماً تجذبنا في جلسة غريبة وفي النهاية نقدها".

ثامناً : الحملات الصليبية

شهد نهاية القرن الحادي عشر ما أطلق عليه المؤرخون بالحملات الصليبية، وهي غزوات استعمارية شنتها أوربا في الشرق، حيث قامت هناك بتأسيس كيانات ودول أقطاعية مؤقتة هناك حسب النموذج الأوربي، ولكن ما لبثت الأقطار العربية في المشرق أن واجهتها وخاضت ضدها نضالاً متحداً وقاومتها.

من أجل (تحرير القبور المقدسة) في القدس، كما جاء ذلك في نداء البابا أوربان الثاني عام 1096 في بلدة مونت كلير الفرنسية، تحركت مجموعات ضخمة من جيوش للإقطاع الأوربية ومن الفرسان، ومن جموع من المتدينين (كنائسيين) وكذلك من الشخصيات المعتبرة، ومن الفلاحين العبيد (المملوكين) والمغامرين ومقطوعي الجذور. وإذا لم يكن ممكناً هنا أن نورد الأسباب المختلفة لحركة الغزوات الصليبية في أوربا، وبنفس المعنى كانت تدور الحملات ضد العرب في أسبانيا (الاستعادة) Reconquista، في توسع للإقطاع نحو الشرق)، ولكن ليس من العسير أن نثبت بأن المصالح السياسية والاقتصادية لمختلف الطبقات والفئات والمؤسسات كانت كامنة ومستترة خلف الشعارات الدينية.

وقد أسس غالبية الإقطاعيين الصغار والمتوسطين وكذلك الفرسان، وبنوا آمالهم وعولوا على كسب أراضي واسعة وعلى غنائم وفيرة. أما الفلاحون المملوكون كانوا يأملون بأنهم ربما سينجحون في سحق الإقطاعيين، كما كانت الكنيسة البابوية تسعى على توسيع سلطاتها وتثبيت موقعها القيادي لمسيحي الشرق الذين ينتمون على مختلف الطوائف والمذاهب المسيحية. فيما كان التجار الأوربيون يسعون في المدن الإيطالية مثل جنوه، بيزا، البندقية، من خلال الدعم لحركة الغزوات الصليبية، وتقوية مواقعهم بكل السبل في منطقة شرق البحر المتوسط في وجه المنافسة البيزنطية والمصرية الحاسمة.

وكانت المقدمات الأساسية لنجاح الحملات الصليبية قد تمثلت بسقوط مركزية الدولة الواحدة، السلجوقية في الشرق العربي، بالإضافة إلى الشلل السريع المتنامي للدولة الفاطمية في مصر على الصعيد السياسي والعسكري، وبما يقارب ذلك في المدن السورية وفي بلاد ما بين النهرين، حيث كان السلاجقة الأتابكيون والأمراء وزعماء القبائل في صراع شديد فيما بينهم. وأخيراً في المساعدة الطبيعية لهم من جيوش الدولة البيزنطية التي كانت تنتظر هذه المناسبة منذ أجيال.

أما الخليفة العباسي في بغداد كان منهمكاً في النضال من أجل استعادة ورفع مكانة وهيبة مؤسسة الخلافة ضد السلاجقة في العراق، فلم يكن يمتلك النية ولا الوسائل لإعلان الجهاد (الحرب المقدسة) للمسلمين ضد غير المؤمنين (الكفار). وقد أستغل الحكام الفاطميون في مصر من جانبهم الانتصارات الصليبية الأولى في المعارك ضد السلاجقة في آسيا الصغرى وشمال سورية، في الأراضي الفلسطينية، فأفصحوا عن نواياهم ورؤيتهم باقتراحاتهم تقسيم سورية وفلسطين فيما بينهم وتشكيل جبهة موحدة ضد السلاجقة.

وكانت الأقسام المختلفة للحملة الصليبية قد أتحدت عام 1097 في القسطنطينية، وبدأت الزحف عبر آسيا الصغرى، حيث استولت على المقر الرئيسي للسلاجقة في نيسا Nicaa ثم اتخذت طريقها عبر كليزيا الأرمينية باتجاه سورية على الرغم من أن الظروف

المناخية كانت قاسية بصفة خاصة على الفرسان المثقلين بالدروع مما زاد في حجم الصعوبات سواء للعربات (كان الكثير من الفرسان قد اصطحبوا عائلاتهم وخدمهم معهم) أو من الهجمات الخفيفة المستمرة، وقد تمكنت القطعات السلجوقية المتحركة بفاعلية من إعاقة تقدم الجيوش الصليبية التي بدأت تتقدم ببطء في جبهة دفاع مغلقة.

وبعد ذلك تمكنت القوات الصليبية من احتلال مدينة اديسا Edessa الاستراتيجية المهمة، حيث أسس هناك بالدوين فون بولون Balduin Von Boullon دوقية فيها. وتم سقطت مدينة أنطاكية بسبب خيانة ضابط أرمني بعد حصار دام ثمانية أشهر. وهكذا جرى احتلال هذه المدينة التي شهدت مذابح للمسلمين، كما قام المسيحيون بنهب وسلب السكان المحليين.

وكان التنازل الشكلي الذي قدمه قيصر بيزنطة أسس نورمان بوموند فون تارنت Norman Bohemund Von Tarent إمارة في أنطاكية أيضاً، وبهاتين الإمارتين مكث الكثير من قادة الحرب الصليبية في المناطق المحتلة دون أن يظهرُوا أي اهتمام باحتلال القدس.

وكان معظم الحكام المسلمون في المدن الساحلية، بما في ذلك بيروت، من أجل نيل رحمة الغزاة، يسمحون للصليبيين باستباحة أراضيهم الخصبة وبساتينهم، بتقديم الطعام للقوات الصليبية، وكذلك من خلال تقديم الهدايا لقادتهم والسماح لهم بالتجول الحر في أراضيهم. وهكذا تمكن عشرون ألف مقاتل من الصليبيين من الوصول إلى القدس التي هاجمها بعد حصار دام شهراً في تموز / 1099. والحقيقة أن الحاكم الفاطمي للمدينة وحرسه الخاص ومسلمي المدينة كانوا من عداد الضحايا في المدينة التي لم يستطع أحد أن ينجو منها بحياته، بل وحتى أن أعداداً من يهود المدينة قتلوا حرقاً في الكنيس الرئيسي للمدينة، وبذلك فإن حوالي سبعون ألفاً من سكان المدينة فارقوا الحياة.

والحديث هنا عن الوحشية المنقطعة النظير وقسوة قوات الحملة الصليبية الذين كانوا: "كمن مسهم الجنون، يقتلون كل شخص يصادفهم في الطريق من الرجال والنساء والأطفال في الطرق والشوارع والبيوت والجوامع، وبدون تمييز". (1)

وبعد الاستيلاء على القدس، استتب الأمر لقادة الحروب الصليبية بدعم فعال من أساطيل المدن التجارية الإيطالية، ومن المدن الساحلية الشرقية للبحر المتوسط والتي كان قادتها من المسلمون المحليون قد ارتضوا دفع ضريبة سنوية في علاقة تبعية إلى ملك القدس وفي علاقة شكلية من التبعية إلى مملكة القدس التي كانت تحت بولون ولاحقاً أخوه بالدوين. ثم كان هناك حكام إقطاعيون في مدن مثل ايدسا وأنطاكية ولاحقاً طرابلس. وفي الحقيقة فإن الزعماء الإقطاعيين تصرفوا ولم يكن الملك في القدس سوى شكلياً، وفوق ذلك منحت امتيازات خاصة للمقر الرئيسي للتجار الإيطاليين في المدن الساحلية. فيما شهد نظام الفروسية نمواً سريعاً، الذين كانوا الحماة الحقيقيين للحملة الصليبية، فكانوا يبدون وكأنهم رجال وفرسان الملك.

وكان نقل النظام الإقطاعي الأوربي إلى المناطق التي كانت تحتلها القوات الصليبية يعني لجماهير الفلاحين المسلمين والمسيحيين، اشتداد حدة الاستغلال مترافقة مع ضغط إيديولوجي متصاعد. وقد شكل ذلك الأساس لأضطرابات كثيرة للفلاحين والتي منها: انتفاضات كالتى جرت في عام 1125 في أنحاء بيروت.

ولم يحقق قادة الحملات الصليبية أي تحسن في الحياة الاقتصادية للشرق، بل كانت هذه بصفة عامة في مستوى أعلى مما هي عليه في أوروبا. وهذا ما عبر عنه ازدهار التجارة التي كان التجار الإيطاليون الذين كانوا ينقلون بتزايد المنتجات الشرقية (مصنوعات) إلى أوروبا، كما أنهم أخذوا تقاليد وأساليب زراعية من الشرق، وقد أستشرق العديد من أمراء الحملات الصليبية ولكنهم لم يتوصلوا إلى الحياة المرفهة للفئات العليا التي عاشوها في الشرق، وهم الذين أخذوا عن الشرق تقاليد وعادات التدبير المنزلي، الملابس التي نقلت إلى أوروبا، والتي جرى تأصلها هناك. وكان الحجاج المسيحيون (إلى القدس وبيت لحم - المترجم) خير واسطة لعملية التبادل هذه، وكذلك قادة الحملات الصليبية الذين يطلق عليهم في أوروبا البرابرة.

أحرز التنامي السريع لاتجاهات القوة المركزية في دول الإقطاع الصليبية، والمنازعات بين الحكام السلاجقة ولا سيما حكام الموصل، حلب، دمشق، والفعاليات الإرهابية للإسماعيليين الجدد "الحشاشين" الذين سرعان ما بدأوا بالقتال ضد الصليبيين وضد السلاجقة، في النصف الأول من القرن الثاني عشر صورة ملونة ولكن مؤقتاً، وبعد عدة نجاحات انهارت تلك الائتلافات وغالباً ما كان يلاحظ وجود حكام مسلمين ومسيحيين في نضال مشترك ضد من هم منتمين إلى دينهم.

ونقطة التحول التي كانت في مصلحة القضية العربية والإسلامية، تمثلت بنهوض أتابكة الموصل، وشخصية عماد الزنكي، الذي تمكن بعد استلامه للسلطة في حلب تمكن عام 1144 من استعادة أديسا، والحملة الصليبية الثانية جاءت نتيجة لذلك والتي قادها الملك لودفيغ السابع Ludwig VII الفرنسي، والملك كونراد الثالث الألماني Konrad III انتهت بفشل كامل، وبدأ القادة الجدد للقوات الصليبية الذين يجهلون المعطيات السياسية المعقدة للشرق، القتال ضد دمشق التي كان سلاجقتها وقادتها قد وقفوا إلى حد الآن مع الصليبيين وقاتلوا معهم ضد الموصل وحلب، كما كان بارونات القدس الإقطاعيين من مملكة القدس يعرقلون حصار دمشق، ولكن لم يكن بوسعهم منعه إذ أن مشاعر سكان هذه المدينة قد أقلب بشكل نهائي وتام لصالح الزنكيين، وهكذا فقد استولى ابن الخليفة الزنكي في المناطق السورية نور الدين الزنكي عام 1154 دمشق دون أن يلاقي مقاومة تذكر.

أنصب اهتمام قادة الصليبيين والزنكيين الآن على السلطة الفاطمية في مصر التي كانت تلتظ أنفاسها الأخيرة، والتي مثل ميناء عسقلان الحصن الأخير لها في المشرق العربي، ثم فقدتها على أيدي الصليبيين عام 1153. أما مصر فقد كانت وبسبب موقعها الاستراتيجي وإنتاجها الوافر من الصناعات الحرفية والمنتجات الزراعية، أهميتها في تجارة البحر المتوسط، هدفاً مهماً لكل الأطراف المتصارعة على السلطة والسيادة. وبعد معارك عديدة ذات نتائج متباينة، تمكن الوزير الفاطمي شاور الذي نال دعماً من نورالدين الزنكي بعد أن أوفد إلى مصر ضابطاً كردياً مقتدراً (شيركو)، تمكن من الانتصار على منافسيه في الداخل وعلى القوات الصليبية التي سرعان ما نالت مساعدة من الملك أمالريش الأول Amalrich I ملك القدس ضد شيركو وقواته. (وكان قد أقيم في القاهرة معسكراً مؤقتاً للصليبيين)، وأخيراً تمكن شيركو عام 1169 من دخول القاهرة واستلامها.

وكان الخليفة الفاطمي، العادل، والذي لم يكن له حول ولا قوة (1160 - 1170) كان (وكما هو مألوف في السنوات الأخيرة)، طفلاً على العرش، فكان عليه أن يعين شيركو

وزيراً، وهي وظيفة حل بها بعد وفاته بشهرين ابن شقيقه صلاح الدين يوسف بن أيوب (1138 - 1193) وهو الرجل الذي أشتهر في التاريخ الأوربي بأسم صلاح الدين . Saladin

وصلاح الدين وهو ابن لضابط كردي يعمل في خدمة الزنكي، نفسه كان ضابطاً في جيشه، ثم أصبح لاحقاً مؤسساً للعائلة الأيوبية في مصر. فبعد وفاة نور الدين الزنكي عام 1174 (وكان تابع له شكلياً) بدأ ينتزع نفسه من موقف الدولة التابعة للزنكيين، في ظل وضع كانت فيه قدراته وامكاناته تتطور. وخطوة فخطوة بدأ باحتلال مواقع الزنكيين في سورية وبذلك أمكن له توفير المقدمات الجوهرية الأساسية في القتال والانتصار على الصليبيين.

وعندما توفي الخليفة الفاطمي عام 1171 أستعد صلاح الدين كداعية مجتهد للإسلام السني المتشدد، لأن يجعل نهاية للسيادة الشيعية على مصر، وأن يذكر أسم الخليفة العباسي، وبذلك أعترف بالخلافة العباسية والارتباط بها وإن شكلياً. وفي عام 1174 - 1175، صادق الخليفة العباسي على سلطة صلاح الدين والأيوبيين ومنحه لقب سلطان. وكانت نهاية الأسرة الفاطمية، وكذلك الحل العنيف للوحدات العسكرية المؤلفة من السودانيين والبربر وتأسيس جيش كردي - تركي. وكان النظام السلجوقي مطروحاً كمثال في الإقطاع العسكري جاهز للتطبيق الكامل، ولم يجد أي رد فعل من الشعب المصري الذي كان بفئاته العليا والدنيا من المذهب السني.

وأدت العقود الأولى من حكم الأيوبيين في مصر وسورية، جزئياً إلى تقدم اقتصادي جديد. وقد رفعت الحكومة الجديدة الكثير من الضرائب الجائرة، وخفضت الضرائب على الأرض من أجل إدارة الاقتصاد الزراعي، وكذلك من خلال تحسين أساليب الري، كسبت أراضي جديدة والبعض من هذه الأراضي أخذت من القطاعات (الأملك العسكرية) التي هي الآن خاضعة بشكل مباشر لهدف الإنتاج الزراعي ومضاعفة أرباحها.

وكان لإزاحة احتكار الدولة للعديد من الصناعات اليدوية والتجارة قد أدى إلى تصاعد الإنتاج الحرفي، وإيجاد أنظمة كمارك مختلفة. وأما بالنسبة إلى التجار، فقد مثل ذلك ازدهاراً لعهد التجارة البعيدة المدى، وكل هذه الإجراءات كانت تعني ضرورة وجود دولة مركزية قوية، وبالقياس مع الانهيار اللاحق حيث ساد الكساد والفوضى في الاقتصاد والعودة من جديد في اشتداد الاستغلال المباشر للقوى المنتجة.

ومضى صلاح الدين معتمداً على القوات المنظمة المؤلفة من العناصر الكردية - التركية، وكذلك على ضعف السلطة الزنكية ومستثمراً ذلك في بناء وتكوين سلطته بصورة منظمة. وبعد عشر سنوات من القتال كان الأيوبيون قد أصبحوا سادة مصر والحجاز واليمن وسورية وفلسطين (طيلة احتلالها من قبل الصليبيين) وعبر بادية بلاد النهرين.

وقدم رشيد الدين زينان الملقب بعجوز الجبال، وهو رئيس الحشاشين في سورية، تنازلات لرفع الحصار عن قلعته من قبل قوات صلاح الدين في عام 1176 وأكد فيها إيقاف جميع الهجمات الإرهابية ضد أي طرف كان. وهكذا تمكن صلاح الدين أخيراً عام 1187 من إلحاق الهزيمة بالصليبيين في فلسطين الذين أنهكوا بسبب قتال دفاعي طويل الأمد، في خطوط طويلة ومنها شريط ساحلي طويل، أسر فيها ملك القدس، وكذلك شخصيات دينية ووجهاء نظام الفرسان وعدد كبير من الشخصيات الإقطاعية والدنيوية.

وفي مجرى عام 1187 أستطاع صلاح الدين الأيوبي أن يحقق بقواته، سلسلة معارك ظافرة، وأن يحرر منتصراً 52 مدينة وحصن بما في ذلك القدس، وإلى جانب بعض القلاع، فيما بقيت ثلاث مدن ساحلية محصنة وقوية هي: طرابلس، أنطاكية، صور. بيد الصليبيين بسبب وضعها الجغرافي المناسب.

وبقدر ما كان ذلك ممكناً، كان موقف المسلمين وقادتهم كريماً عند احتلالهم القدس وفي تعاملهم مع الأسرى والشخصيات المهمة، على عكس الفضاضة والوحشية القاسية التي كان غالباً ما يعامل به الصليبيون أسرى المسلمين، وهو السبب في الصورة الرومانسية لصلاح الدين في الأدب الأوربي.

ولكن الصليبيين والحملات الصليبية ظلت عنصراً مهماً في ملعب القوى السياسية في الشرق حتى زمن المماليك والعهد المغولي. وأنتصار صلاح الدين كان له الأهمية الحاسمة في إطار الدفاع ضد الاستعمار الاستيطاني وهجوم نبلاء الإقطاع الأوربيين.

وبعد وفاة صلاح الدين عام 1193 الذي كان قد فقد عام 1191 المدينة الساحلية عكا حيث احتلتها قوات الحملة الصليبية بقيادة الملك ريتشارد قلب الأسد، أستطاع أخوه العادل الاستفادة من حالة الشقاق والنزاع بين أبناء صلاح الدين واستغلالها من أجل استلام السلطة في مصر وسورية وشمال بلاد النهرين. وكانت العلاقات بين الأيوبيين والصليبيين منتظمة عن طريق اتفاقيات منذ عام 1192، وكانت هذه تضم السيطرة على بعض المدن الساحلية في سورية وفلسطين.

وكان الملك العادل قد أهتم بشكل خاص بالعلاقات مع الدول الإيطالية في التجارة مع مصر، وتوجب على ولده الذي خلفه في الحكم، الملك الكامل 1218 - 1232 القتال ضد الصليبيين الذين زحفوا على الأراضي المصرية حتى مدينة دمياط الساحلية، ولكن الملك الكامل أستطاع إبعاد الصليبيين عن مصر وفي عام 1229 أرغم على قبول طلب من البابا بالتنازل عن القدس للملك الألماني فردريك الثاني بموجب اتفاقية سلام، كما عن شريط من الأراضي يصل حتى الساحل مقابل مساعدة قدمها الملك فردريك بدعم السلطة الأيوبية.

وبعد وفاة الكامل بدأ السقوط السريع للدولة الأيوبية، ودار صراع العائلة على الإرث والموروث، وبذلك فقد لعب الأتراك من قوات الحرس دوراً هاماً فيما يسمى بدور المماليك. وكان كل فرد من الأيوبيين يسعى لكسب أكبر عدد من المماليك إلى جانبه، وقد أدى ذلك إلى إضعاف شديد للسلطة المركزية. فتمكن الملك الأيوبي الصالح عام 1244 وبمساعدة وحدات من الأتراك الخوارزميين، الذين كان المغول قد طردوهم إلى الغرب، تمكن بصورة نهائية وحاسمة من الاستيلاء على القدس من الصليبيين وكانت زوجته ذات الحيوية وولده إلى جانبه، ثم تمكنوا أيضاً عام 1250 من طرد الصليبيين من دمياط التي كانوا قد احتلوا قبل عام (أي في 1249)، وكان قادة المماليك الممتازين قد بذلوا مساعيهم بصورة صريحة بهدف الاستيلاء على السلطة. وفي عام 1250 كان قد ظهر على المسرح السياسي في مصر عائلات من المماليك ذات نفوذ قوي، وكذلك في أجزاء أخرى من سوريا، وقد استمرت في الحكم والنفوذ حتى الاحتلال العثماني.

وكان التقدم الاقتصادي العام في أوروبا في القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر، وتأسيس الجيوش الملكية في بلدان أوروبا الغربية واشتداد النزعة العسكرية - الاستعمارية في التوسع باتجاه الشرق، من الأسباب الجوهرية للحملات الصليبية في الشرق. ولكن الحملات الصليبية كانت في ذات الوقت من الأسباب الجوهرية للتطور الاقتصادي السريع في أوروبا لا سيما دول إيطاليا الشمالية.

أما بالنسبة لسكان المشرق العربي (وكذلك بالنسبة للبيزنطيين) كانت الحروب الصليبية تعني وقبل كل شيء المعارك، الخراب، الظلم والقمع، الخسائر الاقتصادية، والتأثير المستمر على الاقتصاد الأوربي والثقافي وكذلك كان التأثير على أنماط الحياة أمراً وارد الحدوث، فكانت هناك تأثيرات ثقافية كما لعبت أسبانيا وصقلية دور الوسيط في نقل تلك التأثيرات وأبعادها إلى أوروبا.

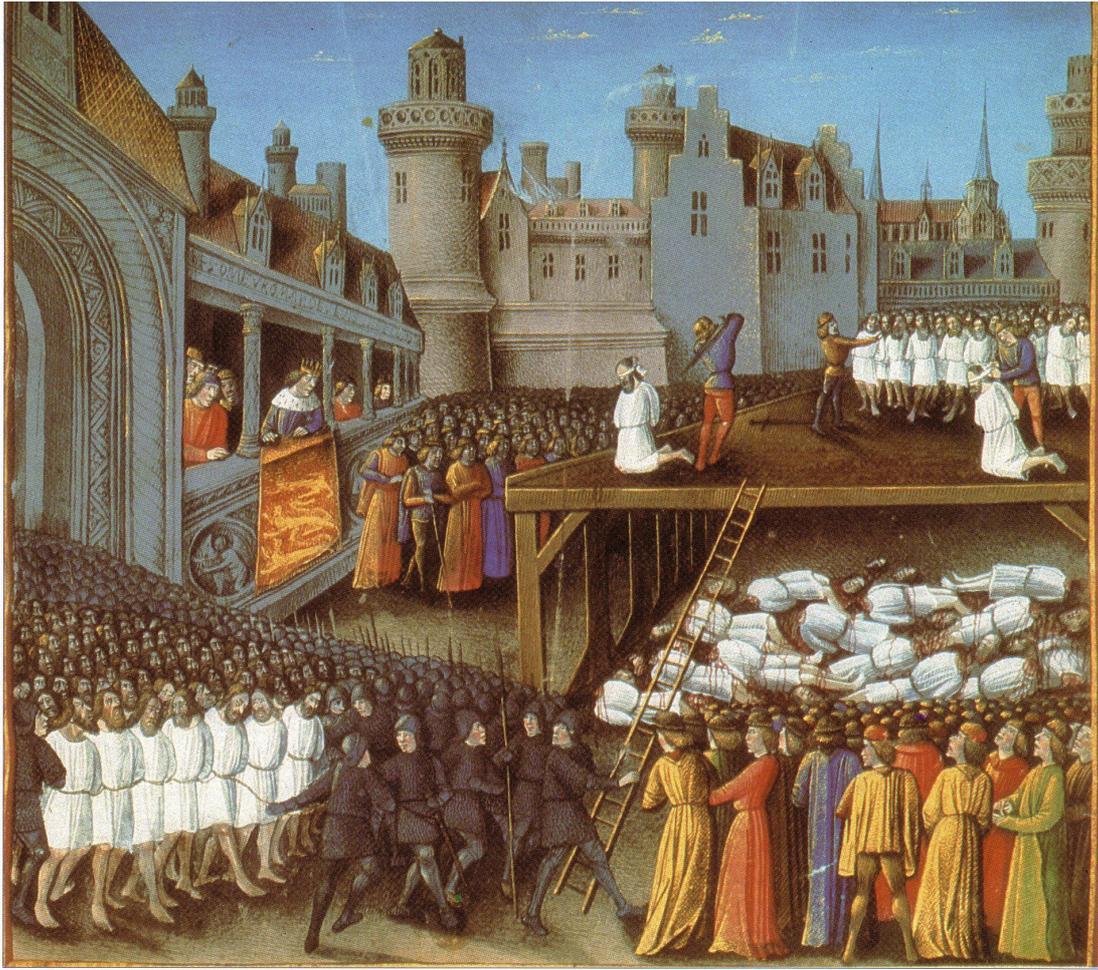
وما كان السلاجقة قد بدأوا فيه، من تقوية العقائد الإسلامية السنية المتشددة، كان تحت تأثيرات الضرورة في تشكيل جبهة سياسية وأيديولوجية موحدة ضد الحملة الصليبية، فقاموا بقفزة جديدة إلى الأمام، هذه القفزة لم تؤد فقط إلى تأسيس مدارس عديدة متشددة حسب النموذج البغدادي له (النظامية) بل إلى جانب ما أجتهد به صلاح الدين في القاهرة وما زالت حتى اليوم شواخص على هذه الجهود.

Runciman, S. : Geschichte der Kreuzzüge . Bd, München 1957, . 1
S.274

تاريخ العرب منذ البدايات وحتى العصر الراهن فريق من المستشرقين برئاسة بروفيسور
دكتور لوثر راتمان

Geschichte der Araber von den Anfängen bis zur Gegenwart
Autorenkollektiv unter Leitung von : Prof. Dr. Luther Ratmann
الجزء الأول 1 : Teil : الفصل 5 / مبحث 3 : S.199 وحتى S. 209 / Berlin
1975

بروفيسور. دكتور غيرهارد هوفمان Prof. Dr. Gerhard Hoffmann
مخطوطة مترجمة : د. ضرغام عبد الله الدباغ ص 182 وحتى صفحة 190



المذبحة التي قام بها ريتشارد في عكا عام 1197
Das Massaker in Akkon Richard schaut zu Hiniatur
im 1197

ثامناً : الأنباء التاريخية المبكرة

Prof . Dr. Manfred Müller

البروفيسور دكتور مانفرد مولر

في اختيارنا لهذا المبحث من الفصل الأول من موسوعة تاريخ العرب، الذي قام بتأليفه مجموعة من الأساتذة في جامعة لايبزج بألمانيا، وهو من الأعمال التي استغرقت وقتاً وجهداً كبيراً جداً من أربعة عشر من المستشرقين والأساتذة من اختصاصات التاريخ والفلسفة والسياسة، وحدوا جهودهم بقيادة البروفيسور دكتور لوثر راتمان، فأنجزوا على مدى سنوات طويلة امتدت لأكثر من عشرة سنوات في سبعة مجلدات، في عمل يمكن وصفه بالدقة والنزاهة والأنصاف.

وقد قررنا اختيار فصول من هذا العمل الموسوعي وتقديمه لقراء العربية في إطار كيف يرانا الغرب ..؟

* * * *

ما يزال عدم الوضوح يكتنف حتى اليوم تاريخ العرب قبل الميلاد، لذلك فإننا سوف لن نتطرق هنا إلى الكثير من ذلك، بل إلى النقاط الرئيسية التي تتضمن المؤشرات والتوجهات التاريخية الأولى.

ويمكننا الانطلاق من الحقيقة: أن اللغة العربية واللهجات، أما تعود في أصلها إلى عائلة اللغات السامية، ومنها نثبت ونقرر: أن كافة المجاميع السكانية التي تتحدث اللغة السامية، إنما كانت قد نزحت عبر العصور من براري وواحات شبه الجزيرة العربية إلى مناطق المراعي على حافات الأراضي الصالحة للزراعة في شمال وشرق الصحراء العربية السورية. وهذا التجول والتحول من البداوة إلى التحضر والمدنية كانت، كما يشهد بذلك اهتمام الكتاب والمفكرين، عبارة عن حركة مستمرة لا تعرف التوقف.

كانت هذه المجاميع تزحف من البوادي بصفة مستمرة على شكل من تحول سلمي، ولكن الأمر لم يكن يخلو بين الحين والآخر من تصادمات ذات طابع عنيف، بشكل شبه حربي، سواء في الصحراء العربية السورية أو في أرض ما بين النهرين القديمة. كما كانوا قد تمكنوا عبر العهود من تأسيس بعض المدن على سبيل المثال: أكد في 2000 ق.م في شمال بلاد النهرين، وبعد ذلك إلى الجنوب منها وبقيادة سرجون في عام 2340 ق.م أول مملكة سامية كبيرة حيث تأسست دولة أكد، ثم أعقب ذلك في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الثاني قبل الميلاد، العموريون والكنعانيون، وفي الثلث الأخير من القرن الثاني دولة الآراميون. وكان العرب آخر وأهم المجاميع التي نزحت وغادرت شبه الجزيرة العربية إلى مناطق الرعي والواحات الخصبة.

ومن الاستنتاجات العامة للمراحل المبكرة من تاريخ العرب، وعن الهجرات من شبه الجزيرة العربية، ما تسمح بتشخيص خصوصيات الحياة والأنماط الاقتصادية لعرب البوادي التي يمكن تمييزها عن كافة البدو الساميين : حيث كانت مرحلة تأسيس الوجود لسكان البوادي في القرنين الثاني والثالث ق.م تتمثل في مجاميع رعي صغيرة، حيث دخل البدو الأعراب إلى دائرة الأضواء في التاريخ، وكانت حياتهم مرتبطة أساساً بتربية الجمال والحياة الرعوية.

والجمل ذو السنام الواحد الذي يعيش في شبه الجزيرة العربية ينتمي على الأرجح إلى صنف جمال البدو الأعراب التي استخدمها العرب منذ نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، وأول ذكر واضح وجلي للجمل ذو السنام الواحد كحيوان يستخدم للامتطاء والتنقل، وجد في تقارير تتحدث عن أعراب اقتحموا أقواماً في فلسطين. وقد حدث ذلك في النصف الأول من القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

والجمل هو حيوان مهم في البرية والصحراء، وهو يتخذ من نباتات الصحراء الجافة مأكلاً له وكذلك من الحشائش ذات الحواف الحادة وحتى ذوات الإبر، والأغصان شبيهة الجافة ويشرب بقناعة المياه المالحة أو المرة، وهذا الحيوان القنوع يقدم كل ما تحتاجه حياة أعراب البوادي والصحاري من الضرورات في نقل البضائع إضافة إلى الحليب والوبر واللحوم والجلود والمواد المستعملة في الحرق (روث الإبل المجفف) والجمال أيضاً وقبل كل شيء هي واسطة نقل وامتطاء لا تقدر قيمتها بالنسبة إلى بدو شبه الجزيرة العربية بسبب سرعتها وقدرتها العالية على التحمل وعلى قطع المسافات الصحراوية دون الحاجة إلى المياه. ومن خلال استخدام الجمال ذوات السنام الواحد (وهو الشائع في الصحاري والبوادي العربي)، توفرت الافتراضات الموضوعية للتوجه صوب مراعي جديدة تتوفر فيها المياه وللإستدلال على مناطق غير تلك التي في وسط شبه الجزيرة العربية، وتحديد طرق المواصلات عبر واحات خصبة تتوفر فيها المياه.

إن المجاميع السامية من الرعاة البدو الأوائل، كانت تستخدم الحمير كواسطة نقل والحمل في مناطق الرعي بالقرب من مراكز المدن في بلاد ما بين النهرين. وكانت الإبل لها ميزة لا تقدر للبدو الأعراب في الصراعات الحربية وذلك فيما يتعلق بسعة دائرة حركتها. فقد مكنت تلك الإبل مستخدميها من الأعراب في تعدد الأغراض في الفعاليات الحربية وسهلت منها. وكما أنها كانت توفر السرعة بالإضافة إلى أنها كانت تمثل حلقة الوصل، فقد كانوا يظهرون في الأماكن غير المتوقعة بشكل مباغت وكان ذلك يجعل من البدو المستخدمين للإبل مفزعين للأقوام المستقرة في إقامتها.

إن إلقاء نظرة على مسيرة التطور قبل التاريخ والتاريخ المبكر في شبه الجزيرة العربية ممكنة فقط من خلال الأبحاث الأثرية المنجزة حتى الآن، حول مسيرة وتقييم حالة السكان والهجرات والآثار الثقافية والأدبية لشبه الجزيرة، فهي المصدر الوحيد لذلك وإن كانت بمقاييس غير كافية.

إن الأبحاث الأثرية والتاريخية في شبه الجزيرة العربية تنحصر حتى الآن في الكرافيتي (Graffiti) (حروف المنقوشة على الصخر) التي لم يكن من السهل الحصول عليها، وهذه البقايا الأثرية التي تلقي الضوء على تاريخ تلك الفترة، فقد أثرت عليها رمال وعواصف مئات السنين وهي متروكة في العراء. وبالمقابل فإن التقنيات الحديثة ذات الملاحظات الدقيقة حول مرحلة الهجرات وحتى المراحل المبكرة من عصور الثقافة هي فقط في المناطق الشمالية على حافة المناطق المأهولة. وفي القرن الأخير وجدت شرق وجنوب شبه الجزيرة العربية.

ومن المؤسف بشكل خاص أن لا يكون لدينا ما يدل حتى الآن في التنقيبات عن المراحل التاريخية المبكرة في شرق ووسط شبه الجزيرة العربية أو مستوطنات الواحات. وهكذا فإن تساؤلاً مهماً يبقى غامضاً عن التطور الاجتماعي في العصور المبكرة لشبه الجزيرة

العربية. والمكتشفات في الأرض تشير أن الجزيرة العربية كانت منذ العصور الحجرية مسكونة من قبل الصيادين والقوام المتجولة الباحثة عن ما يؤكل ويصطاد.

وتجدر الملاحظة أن الظروف الجوية وشروط الطقس كانت (إلى جانب ذلك) وحتى عام 10,000 عام قبل الميلاد مناسبة أكثر مما هي عليه في عصرنا الراهن، ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تمر فيه بالعصر الجليدي، كانت آسيا الوسطى وجنوبها تمر في عصر المطر، وكانت المرحلة التالية هي العبور إلى مرحلة الزراعة وتربية الحيوانات التي نطلق عليها اليوم مرحلة الثورة الزراعية وهي التي حطمت تدريجياً النظام الاجتماعي القديم من خلال مجتمع الطبقات.

وفي إطار شبه الجزيرة العربية، فقد جرت هذه العملية أولاً في جنوب شبه الجزيرة حيث تتوفر المرتفعات المثمرة، والتي وفرت شروطاً جغرافية / مناخية مناسبة للزراعة المعتمدة على المطر. والتطور التاريخي الهام في جنوب شبه الجزيرة العربية منذ بداية الهجرات، جعل الأراضي المرتفعة صالحة للزراعة، ولاحقاً باستخدام الوديان في الأراضي المرتفعة من خلال بناء مستلزمات الري (السدود) وإيجاد حلول للمعضلات التي ترافق هذه الفعاليات، وعدم وجود مصادر دقيقة حوله، وهي التي تمثل واحدة من أكثر فصول تاريخ العرب في عدم وضوحها على الإطلاق.

من الواضح والمؤكد، أن جنوب شبه الجزيرة العربية قد اكتسبت تطوراً متصاعداً نسبياً، وذلك واضح من خلال التكوين والتشكيل الثقافي في الجنوب وانعكاساته. وهناك ملاحظة أخرى تدل على ذلك، ويكمن في الاختلاف في اللغة بين اللهجات: عرب الشمال (التي تطورت فيما بعد إلى اللغة العربية الكلاسيكية) ولغة ولهجة عرب الجنوب.

وعن مرحلة تطور عرب البوادي (المستخدمين للجمال) في شمال شبه الجزيرة العربية وتشكل العصر المبكر للدول المعتمدة على الزراعة في جنوب شبه الجزيرة. وهنا لا توجد لدينا (مخطوطات) عربية، ولم ترد كلمة واحدة عن هذا الماضي في شهادات المؤرخين المعاصرين في البلدان الأكثر تطوراً ضمن تقاريرهم. وهكذا كان الأمر بالنسبة لبلاد الرافدين مثلاً العامرة بالسكان، وسورية وفلسطين التي كانتا على الأرجح أكثر تطوراً، فقد كان ذلك يعني أنها كانت غير مهمة سياسياً واقتصادياً بحيث أنها لم تترك أي اثر يدل على ذلك.

إن المعطيات الأولى المعاصرة التي قدمها الكتاب والمؤرخون عن المراحل المبكرة لتاريخ العرب، تعود في أصلها إلى الربع الأول من القرن الأول قبل الميلاد، فقد أرسلت آنذاك دولة سبأ في جنوب شبه الجزيرة قافلة من الجمال إلى فلسطين وسوريا مثلت التبادل التجاري المباشر مع البلدان الأكثر تطوراً ودخلت للمرة الأولى في تاريخ الرحلات بين الشعوب.

وفي نفس الوقت تشير رقم (ألواح طينية) آشورية عن الصدامات العسكرية الأولى مع عرب البوادي الشمالية من رعاة الإبل، وهنا تعرض لنا آثار مكتوب عليها باللغة العربية من أواسط القرن الأول قبل الميلاد، أما بالنسبة للنصف الأول للقرن الأول ق.م، فإننا نعتمد على مصادر غير عربية، فالأمر يدور هنا عن الكتابات والمصادر غير العربية لبعض المعطيات الواردة في الوصايا العبرية القديمة، وبشكل رئيسي في مصادر الخابور باللغة الآشورية والبابلية. والأخبار الموثقة بالكتابات دعمت بواسطة الصحائف المصورة

في القصور الآشورية الملكية، هذه النقوش تقدم ليس فقط الأنباء المصورة للمعارك الحربية للملوك الآشوريين ضد الأعراف العربية فحسب، بل أنها تعرض ما لم تقدمه المخطوطات المكتوبة من صور مهمة لأشكال الملابس والتسليح والمعدات الحربية لعرب البوادي في ذلك الوقت.

وإذا أردنا أن نبحث بشكل اعتيادي في معطيات هذه المصادر التاريخية عن تاريخ العرب في النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد، والتقييم من خلال هذه الصور عن المعارك، فمن خلال هذه المصادر علينا إعادة كتابة تاريخ العرب لتلك الحقبة (النصف الأول من القرن الأول ق.م) مع ملاحظة أمرين:

أولاً: أن هذه التقارير والأخبار المستقاة من المصادر الآشورية/ البابلية والعبرية لا تحتل اهتماماً تاريخياً من الناحية السياسية والعسكرية والاقتصادية عند العرب وأسلافهم، بل أنها تكاد تقتصر على الاتصالات المباشرة، وعلى الأغلب الصدمات العسكرية منها مع العرب وما أعقب ذلك.

ثانياً: إن كل الأخبار حول الأعراف البدو من رعاة الإبل هي من منظور البلدان الأكثر تطوراً والأهله بالسكان، والتي هي ليست واقعية عن حياة العرب القاطنين في البوادي ولا تضم إلا الضئيل من المعطيات الجغرافية عن المناطق التي كان العرب يقطنوها. وهناك أيضاً الكثير من ذلك في الوثائق اليونانية واللاتينية اللاحقة.

وعن الدول العربية في جنوب شبه الجزيرة العربية، فهناك عدا المصادر العربية عن مرحلة النصف الأول للقرن الأول ق.م، هناك فقط المعلومات عن إمبراطورية سبأ. وللسبئيين خلال هذه الحقبة (بشكل واضح) الدور الأساسي في التجارة البعيدة المدى، تجارة القوافل فيما يدعى (طريق البخور المقدس) المار على امتداد الواحات العربية الغربية إلى غزة على البحر المتوسط. ويحتمل أن تكون إمبراطورية سبأ قد مارست احتكار التجارة البعيدة المدى للسلع والبضائع العربية الجنوبية التي تتألف من: البخور، المر Myrrh، الذهب، الأحجار الكريمة، التوابل.

ومما يدل على تأمين هذه التجارة البعيدة المدى، هو ما ورد في الكتاب المقدس (الفصل العاشر) إذ تحدث عن زيارة ملكة سبأ للملك سليمان (926 - 965 ق.م) وهذا يعني بأن المقطع الأخير من طريق البخور المقدس كان يمر من منطقة تقع آنذاك تحت سيطرة إمبراطورية سليمان، وهو (شخصياً كما نعرف) الذي كان يسعى إلى مكتسبات في التجارة بين الدول ويسعى لاحتكارها في مملكته. ومن أجل ذلك فقد منح سبأ مقتضيات التفاهم والاتفاق معه (سليمان) ليكافئ دولة سبأ، وقد شاع أمر الهدايا من الذهب والأحجار الكريمة التي هي سلع عربية جنوبية تقليدية. كما نجح سليمان في محاولاته التي بذلها في إرسال مبعوثاً إلى الفينيقيين مع مساعدات في أسطول تجاري أبحر إلى خليج العقبة متوجهاً إلى بلاد الذهب أوفيرا Ophira التي ربما تقع على السواحل العربية الغربية، لتأسس علاقات تجارية مباشرة مع الجنوب العربي وبذلك بدأت التجارة العربية البعيدة المدى واحتكار تصديرها من الجنوب العربي للسلع والبضائع التي ربما كانت سبباً إضافياً لدولة سبأ من أجل تأمين قوافلها التجارية عبر إقامة العلاقات والهدايا.

وقد عاد ذكر السبائيين مرة أخرى في كتابات (رقم طينية محفورة على الصلصال والطين) الملك الآشوري تيغلات بيليسار الثالث Tiglat Pilezar 111 و الملك سرجون الثاني Sargon 11 على أثر التقارير الحربية للعام 720/732 وتحت قيادة الملك الآشوري

تيغلات بيليسار الذي كان على صلة بستة أقوام (عشائر أو قبائل) من العرب من سكنة الواحات الذي كان على صلة بستة أقوام (قبائل) من العرب من سكنة الواحات " الذي لا يعرف أحد قدم سكناهم). وفي كتابات سرجون ظهرت حتى أسماء ملوك سبأ، وهنا يستحق الملاحظة، إذ لا يحتمل أن تكون هناك مصادمات عسكرية مع هذه الدولة الجنوبية البعيدة، ومن هنا ففي ذلك دلالة يفهم منها أن العلاقات التجارية كانت هي الأساس كما في علاقات سبأ بدولة الملك سليمان.

ويدعم هذا الافتراض ورود أسماء السبائين في سقوط الدولة الفلسطينية، واحتلال غزة من قبل الآشوريين لكونها محطة هامة في طريق البخور المقدس، وهذا يدل على أن دول سبأ كانت تسعى على إقامة علاقات طيبة مع الملوك الذين خلفوا سرجون، وتدل على ذلك تبادل هدايا وضعت في حجر أساس المعبد كاريبيل Karibil في حوالي عام 685 ق.م في عهد سنحاريب، والهدايا هي من الذهب والتوابل والأحجار الكريمة.

إن مصادر الآثار في الخابور (الرقم المكتوبة) تبدأ بملاحظة قصيرة فيما يخص عرب البوادي الشمالية، إن عربياً اسمه جنديبو Gindibu كان في عام 853 قد دعم ائتلاف أمراء سوريين وفلسطينيين في القتال ضد شلمنصر الثالث الآشوري في معركة قرب قرقر Qrager في منطقة أورانتس Orantes شمال سوريا، بقوات بلغ تعدادها ألف فارس على الجمال. وشلمنصر، أو بالأحرى أحد كتاب بلاطه لم يمنحوا أهمية كبيرة لمساعدة الفرسان العرب، إذ لم تظهر أنباء أخرى عن هذه المساهمة في المراحل الختامية لهذه المعارك.

وبعد 200 عام فقط، كانت الظروف والأوضاع قد تغيرت بشكل كبير. فقد بدأت أنباء الصدمات العسكرية مع العرب تحتل مجالاً أوسع في كتب التاريخ، وفي سير الملوك الآشوريين المهمين. بل أن منجماً في بلاط أحد الملوك أخذ يهدئ من مخاوف الملك اسرحدون من فعاليات عسكرية للعرب الشماليين من سكان البوادي وفرسان الجمال بإعطائه تكهنات (قراءة في التنجيم) من أن خسوف القمر الكلي في 27 كانون الأول وحتى 28 منه لعام 670 ق.م سيكون مشئوماً ليس فقط للأعداء التقليديين لدولة الآشوريين في سوريا ولبلاد النهرين الجنوبية فحسب، ولكن أيضاً "الملوك العرب".

ومن عام 540 حتى 550 ترك آخر ملوك بابل، وهو الملك نابونيد Nabunid قصره ومقر إقامته بمدينة بابل وأتجه إلى العرب المقيمين في الواحات الغربية تيماء Taima، وهذه الحقائق القليلة تكفي للثبوت بأن العرب الشماليين كانوا في القرون الثلاثة الأولى، ومن خلال الكتابات والرقم والآثار، في عملية تطور أدت في غضون قرون قليلة إلى تأسيس دول عربية شمالية مهمة، وترشح تدريجي للعرب إلى الشمال. وبدون أن ننظر إلى جميع هذه المعطيات مجتمعة، فإننا سوف لن نتمكن من فهم أحداث فترة الإمبراطورية الآشورية المهمة.

وبصورة مشابهة لما حدث مع شلمنصر، حدث أيضاً مع الملك تيغلات بيليسار الثالث 727 - 745 وسرجون 705 - 722 ق.م وأن العرب موجودون دائماً في المصادر الرسمية وفي المعارك باتجاه سورية، قامت الملكة العربية زبيبة Zabibe بخلع وكيل الملك الآشوري، والملكة التي أعقبها شمسي Samsi التي قامت بعد ذلك بقتل بدع واضح وعلني لثورة ملك دمشق ضد الملك الآشوري.

وبعد الملك تيغلات بيليسار ومن ثم سرجون، فإن ملوكاً آخرين قاموا باحتلال غزة مرة أخرى حيث ينتهي طريق البخور المقدس، وكان يعمل في هذا الطريق المزدهر لقوافل التجارة البعيدة المدى عدا السبأيون، العرب أيضاً من غرب وشمال شبه الجزيرة من سكان الواحات ومن تجار الواحات مع الآشوريين.

ومن أنباء معارك سنحاريب، تبرز أنباء العرب لأول مرة في بابل: وكان أحد أخوة الملكة جاتي Jatie، على صلة وثيقة بين العرب وبين الملك البابلي مردوك - أبلا يديدين iddin - apla -Marduk، حيث طلب منهم المساعدة ضد سنحاريب الذي أنتصر عليه في النهاية وتمكن من أخذه أسيراً، وبعد سنوات قليلة أحتاجت بابل من جديد إلى المساعدة العسكرية من العرب في صراعها ضد الآشوريين، وفي هذه المرة أرسل سنحاريب قوات لمعاقبة أعداءه من العرب حيث يقطنون في البوادي، وهؤلاء تركوا الآشوريين يقتربون بقواتهم ثم بدؤوا مناوشاتهم ومن ثم التجأوا إلى المدينة المحصنة الدومات Adummatu وهذه المدينة كما ترد في التقارير أصبحت مقراً لإقامتهم. وفي مواقع أخرى، هناك تقارير عن محاصرة العرب في هذه المدينة بعد بضعة سنوات.

والدومات هذه هي الجوف Gof وهي تقع في منطقة زراعية خصبة بين الصحراء الكبرى النفوذ Nefud وبداية وادي السرحان، وهو وادي كان إلى وقت قريب الطريق الأكثر أهمية للربط بين سوريا والمرتفعات الداخلية الشمالية من القيدار Qedar، وأن أمراء القيدار في الآثار (الكتابية) الآشورية يسمون "ملوك العرب" وكان هؤلاء يمارسون نفوذاً عالياً على الأقوام (القبائل) العربية في الصحراء العربية السورية.

وبعد تهديم مدينة الدومات وسلبها ونهبها على أيدي القوات الآشورية في عهد سنحاريب، أعقب ذلك بضعة سنوات من الهدوء. والأمراء من قيدار هازيل Haza,el وولده وخلفه جاتا Jata ولاحقاً عويطة Uaite، الذي خضع للآشوريين. والملك جاتا طلب منهم المساعدة بالسلاح ضد منافسيه الذين كانوا قد نجحوا في استنهاض كافة أعراب البادية الشمالية ضده. وفي السنوات التي تلت ذلك، بدا وكأن الملك جاتا، كان قد بسط سلطانه على مناطق الصحراء العربية / السورية.

وعندما ساءت لاحقاً العلاقات بين الملك الآشوري آشور بانيبال، وأخوه شمس شوم أوكين Samas - sum - ukin ملك بابل، أعتقد جاتا أن ساعته قد حانت لأن يستعيد الاستقلال الذي كان قد فقده، فهب ليقف إلى جانب الملك البابلي بعد أن استفحل الخلاف بينه وبين آشور بانيبال. وفي عام 652 ق.م تقدم العرب بقوات في ثلاثة مجاميع من الجيوش ضد الآشوريين وحلفائهم.

وكانت سورية هي موقع المعارك الطبيعي للعرب. وفي الحرب أحتفظ جاتا شخصياً بقيادة القوات. وفي مجرى القتال، هب القسم الثالث من القوات العربية بقيادة الأخ أبياتا Abjate وأيامو Ajamu مسرعاً نحو بابل من أجل تأكيد التزامات التحالف ولدعم شمس شموكين ضد الآشوريين الذي تمكنوا بهجوم مقابل من أحاق الهزيمة بالعرب وأرغموهم على العودة إلى مدينة بابل حيث تم حصارهم مع البقية الباقية من الجيوش البابلية. وبهجوم ضاري ودموي، تمكن العرب من خرق الحصار والخروج من المدينة على الرغم من أنهم تكبدوا الكثير من الخسائر. وفي غضون ذلك، كان القيدار من العرب، من سوريا ومواب Moab تلاحقهم جيوش الآشوريين إلى مناطق سكناهم التقليدية في البوادي، ثم وكحل مؤقت، فقد تنازل آشور بانيبال أخاه بيجان الذي كان قد التجأ إليه، بدلاً من الأمير المتوقع جاتا كملك على القيدار، كما توجب على القيداريين الالتزام

بالإخلاص في احتفال مقدس، بالإخلاص والوفاء الأبدي للأشوريين والتعامل مع جواتنا كعدو هارب.

لم تخب مساعي عرب الشمال نحو الاستقلال من خلال هذه الإحباطات، بل على العكس: فبعد سنوات قليلة وعندما هزم الجيش الآشوري في عيلام، انتفضت كافة الأعراب الشمالية ضد الآشوريين، حتى أولئك الذين كانوا في الماضي يفضلون انتظار الفرصة الملائمة. وبسبب التنافس القديم بين الأقوام (القبائل) المختلفة، لم يكن بالإمكان اتخاذ فعاليات موحدة لكل العرب، وكان لذلك نتائج خطيرة مؤثرة سلباً. فإن الجيش الآشوري رغم هزيمته في عيلام لم يجد الصعوبة في ضرب المجاميع العربية واحدة أثر الأخرى منفرداً بكل جماعة على حده، وهكذا فإن الثورة العربية الثانية الكبيرة انتهت على نحو دموي فضيع، وقد أخذ الآشوريون معهم أعداداً غفيرة من الأسرى، كما استولوا على أعداد هائلة من الجمال.

وكانت سياسية الآشوريين حيال العرب تتمثل بجعلهم يؤمنون طرق المواصلات المؤدية إلى سوريا وفلسطين (المارة عبر أراضيهم) وحماية المقاطعات الآشورية والملوك الصغار الخاضعين لسلطة الآشوريين ودعمهم في هجمات العرب عليهم. كما كانت تفرقة العرب واحدة من أهدافهم ببيت أسباب الصراعات بينهم وإبقائهم بعيدين في البراري. وقد سعى الآشوريين بالدرجة الأولى لتحقيق هذه الأهداف بالوسائل السياسية والدبلوماسية وكذلك بواسطة الحملات والغزوات بين الحين والآخر لتخويف العرب وإرغامهم على الأنطواء تحت سيادة وسلطان الآشوريين، وأيضا في تنصيب بعض المخلصين للسيادة الآشورية كقادة على القبائل بدلاً في إقامة سيادة عسكرية آشورية دائمية على الصحاري المترامية الأطراف ومناطق البوادي المحيطة بها في شمال شبه الجزيرة العربية وقد استخدموا لذلك ثلاثة أساليب رئيسية:

أولاً / ربط العرب وقادتهم من خلال قسم الإخلاص للأشوريين وعبر اتفاقيات إضافية إلى جانب التزام الأخلاق والولاء. وقد أعاد الآشوريون إلى العرب ما سلبوه منهم في الغزوات السابقة.

ثانياً/ مفاوضة العرب على نهج يؤدي إلى تفرقتهم.

ثالثاً/ مراقبة وحراسة قادة الأقوام العربية من خلال فرض موظفين آشوريين رسميين ومستشارين، أو من خلال مبعوثين والاستطلاع عبر الجواسيس.

أما الضرائب التي فرضت عليهم فقد كانت ضئيلة نسبياً، والعرب لم يظهروا إلا نادراً، الرغبة في الحراسة وتقديم المساعدات بالقوات العسكرية أو الجمال التي تستخدم للمواصلات والآشوريون أيضاً لم يرغبوهم عليها.

وكان عهد المملكة البابلية الجديدة 539؟626، عهداً مزدهراً للتجارة البابلية مع جنوب وغرب شبه الجزيرة العربية. وقد قام أعراب الواحات الغربية (تيماء) بأفضل ما يكون عليه التاجر، بدور الوسيط التجاري. وقد لعبت الاعتبارات الاقتصادية دوراً مهماً في ذلك، ففي عام 550 ق.م وعندما حاول نابونيد كأول زعيم عربي خارج الدول الكبيرة، أن يأخذ على عاتقه القيام بمحاولة لضم وإحاق الأجزاء العربية إلى مملكته.

ففي البدء قام بالاستيلاء على تيماء، ومن هناك إلى أهم تجمعات الواحات في غرب شبه الجزيرة العربية ومنها ديدان Dedan وأولى Ula وخيبر ويثرب (المدينة) وبذلك فإنه قد

جمع في يديه وتحت سلطانه كافة طرق التجارة المزدهرة مع الجنوب العربي، وبالإمكان معرفة ماذا كانت تعني ذلك لنابونيد عندما أتخذ من تيماء مقراً له لمدة عشر سنوات، كما أنه حمل وكيل ملك بابل الإدارة البابلية.

ومن خلال التهديد الذي مثله الفرس الذين كان نفوذهم بأزدياد، وجد نابونيد نفسه مضطراً إلى التراجع. ولكن بعد مضي عام واحد تقدم كيروس Kyros نحو بابل، وانشغل البابليون بالعدو الجديد، ووجدوا الفرصة للتخلص من تبعيتهم لبابل.

وفي أنماط الحياة، لم يختلف أعراب البوادي عما كانوا عليه في القرن الأول قبل الميلاد عنهم في القرون الماضية، والمسألة الرئيسية كانت الحياة القاسية في الصحاري والبوادي في شبه الجزيرة العربية. وتمثل الجمال وكذلك الأغنام والماعز دوراً مهماً إلى جانب الحمير كثروة حيوانية في المناطق الصالحة للزراعة. فعلى سبيل المثال، كانت الأبقار تربي في منطقة الجوف، وكان سكان البوادي (كما هم الآن) يرتحلون مع قطعانهم وخيامهم وسائر حاجاتهم وما يملكون إلى حيث تهطل أمطار الشتاء. عبر البادية المخضرة المعشوشبة، وعلى الأغلب في مجاميع صغيرة من منطقة رعي إلى منطقة رعي أخرى. ومن ثم لاحقاً في وقت الصيف يتجمعون بالقرب من مصدر للمياه وهم يشكلون تقريباً قبيلة ذات نظام أشبه ما يكون بالتعاونية.

ولم يكن بروز اتحاد محلي لعدة قبائل بقيادة زعيم واحد يستغرق وقتاً طويلاً إلا نادراً، وعلى رأس القبيلة (مختلفاً عن التطور اللاحق) كانت النساء يمارسن جوراً في مراسيم العبادة وهذه تعلمنها من الآشوريين الذين لم يكونوا ينصبون الملكات فحسب، بل والكاهنات في المعابد أيضاً.

وسكان الواحات كانوا يشتغلون في الزراعة وكذلك في أساليب العناية بأشجار النخيل. وكان سكان الواحات الغربية قد أبتدؤا بجني الأرباح ليس فقط من عوائد التجارة البعيدة المدى، بل بما يقومون به من فعاليات زراعية، كما أدى ذلك إلى تقوية الروابط والعلاقات الاقتصادية بين سكان واحات الصحراء وأهل البادية القائمة على المبادلة، الأمر الذي وحد أهدافهم وآمالهم السياسية أيضاً.

وفي مجرى النصف الأول من القرن الأول ق.م كان سكان البوادي العرب يكتسبون على هذا النحو أهمية متزايدة. وكان هذا واضحاً للعيان في الصراع اللاحق مع سكان ودول المدن في مناطق العمق. وكانت بدايات هذا الصراع تتمثل بغزوات من عرب البوادي إلى المدن في العمق من أجل الحصول على غنائم أو مكتسبات محلية. أما في المراحل اللاحقة فقد شارك الأعراب من قبائل مختلفة في فعاليات عسكرية كبيرة سواء في دول فلسطين / سوريا/ بلاد النهرين، مع أنهم لم يحصلوا على شيء من هذه المرحلة، فما زالت المناطق تحت السيطرة الدائمة أو المباشرة لحكومات تلك الدول ولم تتخلى عن سيادتها بعد.

بروفسور، دكتور مانفرد مولر .
الفصل الأول من موسعة تاريخ العرب. 1 Teil der Geschichte der Araber
Berlin 1975
الجزر الأول: برلين / 1975
ص 1 حتى ص 14
S.1 - 19 Kap. 1

عاشراً: ازدهار العلوم والثقافة / العصر العباسي

Prof. Dr. Gerhard Hoffmann

بروفسور.د. غيرهارد هوفمان

كانت الفترة من القرن الثامن حتى القرن العاشر زاخرة بشواهد الازدهار العالي للعلوم والثقافة في الإمبراطورية العباسية حتى بعد سقوطها السياسي وتجزئتها إلى عدة كيانات إقطاعية، ولكن تأثيراتها على التطور الثقافي في أوربا أثمرت حتى آخر العصور الوسطى. وقد ساهم في هذه الفترة الثقافية الزاهرة جميع الشعوب المنطوية تحت الخلافة العباسية، وبالدرجة الرئيسية، العرب ثم الفرس الذين ارتبطوا بحروف اللغة العربية والقسم الأعظم منهم بالسلام وكان ارتباطهم قوياً " وشعوب الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط الذين ورثوا وبدرجات عالية، التقاليد الثقافية للشرق والآثار الكلاسيكية وهم يحوزون تجربة روحية، الأمر الذي ساهم في تطور الثقافة في عهد الخلفاء بصرف النظر إن كانت هذه الشعوب عربية، أو أنها كانت قد احتفظت بلغتها وعرقها". (1)

وكان الموالي قد سعوا من أجل المساواة السياسية والاجتماعية في عهد الخلافة، وبنفس الوقت، حاول الفرس في هذا المجال من خلال الأدب الشعبي. وبحسب أحكام القرآن "49:12 - سورة الحجرات" حيث كان الرسول يساوي بين كافة المسلمين سواء كانوا عرباً أو غير عرب، وحاول الفرس قبل غيرهم من الموالي أن يكسروا احتكار العرب للميدان الثقافي مع أنهم في ذلك الصراع الروحي للفرس، المسلمين منهم بالدرجة الأولى، كانوا يمسون الثقافة الإيرانية القديمة. وهنا لا يمكن الحديث عن حركة ثقافية وطنية فارسية، فقد كان الهدف الأوحده هو : المساواة في الحياة الثقافية في إطار الإسلام واستخدام اللغة العربية بفاعلية.

وكانت الشروط من أجل تحقيق تقدم أو ازدهار عام، علمي أو ثقافي، في العصور العباسية المبكرة مناسبة، وكان المستوى المرتفع للزراعة ونظم الري بصورة خاصة، والخزف والمصنوعات اليدوية متطوراً، وكذلك الأبعاد الهائلة التي بلغت التجارة البعيد المدى، أما المتطلبات الدينية كالتوجه إلى مكة أثناء الصلاة، فقد تطلب هذا تطوراً في العلوم الطبيعية وبدرجة رئيسية للرياضيات وعلم الفلك، الكيمياء والجغرافية، وليس أخيراً، أن الحياة المرفهة للفئات العليا الواسعة فتحت المجال لتقدم الطب وفن المعمار والأدب والشعر والموسيقى. كما أن الصراع بين المدارس الدينية قاد إلى ازدهار في الفلسفة. ولكن وكما مر علينا قد أنتج المتشددون الإسلاميين اللاهوتيين وعلم الفقه. إن التعامل مع العلاقات السياسية الدينية والاجتماعية للماضي والحاضر، كان الأساس في تطور سريع في مجالات الجغرافية والتاريخ والبناء العام للآداب وكذلك في الرد على الحركة الشعبية وفي استمرار التطور في القواعد العربية الكلاسيكية والفلسفة.

وكانت كل المدن الكبيرة في الإمبراطورية مركزاً للحياة الروحية ولا سيما شمال بغداد حيث شيد الخليفة عام الخليفة 830 المأمون هناك بيت الحكمة كموقع مركزي لإعمال الترجمة. وكان ذلك مرتبطاً بمكتبة ضخمة كانت قد أقيمت ضمن المشروع. وإلى جانب بيت الحكمة كان هناك أعداد كبيرة من المراصد والمستشفيات التي كانت بنفس الوقت مراكزاً للتعليم والبحث يعمل فيها عدد كبير طلاب العلم والأساتذة، من جميع القوميات. وكان يساهم في الجوامع التي كانت على الأغلب تضم المكتبات، معلمون مشهورون في إلقاء المحاضرات على الأوساط المتعلمة من السكان، وسرعان ما أسس أبناء الفئات

الثرية منتدئاً أدبياً(مجلس الأدب)، كما حازوا على المكتبات الخاصة. ومع التوسع في إنتاج الورق، شهدت أعمال الكتب والمخطوطات قفزة مهمة في الأتساع، إذ كانت مدينة بغداد لوحدها تضم 100 محل لبيع الكتب.

والتطور الحقيقي في تفتح الثقافة العربية - الإسلامية، لا سيما في ميادين العلوم الطبيعية والفلسفة كان في عهد المأمون، لا سيما في أعمال الترجمة الهندية والفارسية، بالدرجة الأولى، وكذلك الأعمال اليونانية. وساهم في ذلك سوريون من المسيحيين النساطرة ويهود وأفراد من ديانات أخرى. وقام العديد من الأساتذة من بينهم الطبيب إسحاق بن حنين في أديسا، حران، أنطاكية، الإسكندرية، وفي عدد كبير من الأديرة السورية وفي بلاد النهرين، بترجمة أعمالاً من اليونانية في العلوم الطبيعية والفلسفة مثل : كالين Galen ، هيبوقراط Hippokrates وبطليموس Ptolemaus وأوكليد Euklid وأرخميدس Archmedes وأرسطوطاليس Aristoteles وأفلاطون Platon ، وهم بذلك وضعوا الأساس في إدخال وحفظ هذا الإرث القديم في الشرق الإسلامي وبالتالي في إيصاله إلى المدرسة الأوروبية في العصور الوسطى .

ولم يقتصر دور الأساتذة الشرقيين في الإيصال السلبي للإرث الثقافي القديم إلى أوروبا، بل ساهموا مساهمات جوهرية في تطوير تلك العلوم إلى مستوى أعلى، سواء كعلوم أو كتطبيق. وفي مجال الطب والعلوم الصيدلانية الأوائل قد تم أعدادهم وكذلك الأطباء في المدن الكبرى، ومنذ القرن العاشر كان عليهم اجتياز الاختبار، وبذلك تم أبعاد الدجالين ممن يدعون مهنة الطب. وقد تأسس في بغداد في عهد هرون الرشيد أول مستشفى، وسرعان ما أرتفع العدد إلى 34 مستشفى في البلاد الإسلامية. وكان أحد أشهر الأطباء، كيميائياً وفيلسوفاً بنفس الوقت، وكان متديناً عقلياً وهو الطبيب الفارسي الرازي (865 - 925) وعنه نقل إلى أوروبا أعمالاً حول الكيمياء وأيضاً كتاباً عن الجدري والحصبة في ترجمته إلى اللاتينية عام 1565 و تقارير طبية عن الجدري في مؤلفه الرئيسي (الحاوي Al Hawi) وهو خلاصة لعلوم طبية يونانية وفارسية وهندية وعربية، ثم ظهر كتاب في أوروبا على أساس أبحاث الرازي باللغة اللاتينية، ترجم عام 1279، ومنذ عام 1486 صدر بعدة طبعات في أوروبا.

وكان الرازي معلماً موسوعياً في العلوم، ثم ظهر ابن سينا وهو عالم في الطب والفلسفة من اصل فارسي، ويسمى باللاتينية أفسينا Avicenna (980 - 1037) ومؤلفه "قانون الطب" وهو كتاب رائع في العلوم الطبية اليونانية - العربية، وقد صدر من الكتاب خمسة عشر طبعة لاتينية في العصور الوسطى في أوروبا وكان قانون الطب كتاباً رئيسياً في علوم الطب حتى القرن السابع عشر.

وكانت مساهمة الفلكيين الشرقيين أصيلة في علوم الفلك والرياضيات، كما كان هناك العديد من المراصد المجهزة بالإسطرلابات التي تعمل على مبدأ ربع الدائرة(وهو جهاز لقياس ارتفاع النجوم) مع ساعات شمسية وكرة أرضية. وتوصل الفلكيون المسلمون في عهد الخليفة المأمون، إلى كروية الأرض، ودونوا قائمة بأرتفاعات النجوم المعقدة التي ثبتها العالم الخوارزمي (680 - 850) ثم جاءت عبر أسبانيا إلى أوروبا حيث ترجمت في عام 1126 على اللاتينية، ومجموعة من العلماء الفلكيين الأفاذ تابعوا ذلك، حتى جاء العالم الرياضيات الفارسي والشاعر العبقرى عمر الخيام (1033 - 1123) وهو الذي أنشأ تقويماً أدق من تقويم غيوغوري.

والخوارزمي الذي عمل أيضاً في الجبر، ونظام الأعداد الهندي ذو الصفر (ومن هنا اشتق في اللغة الألمانية Ziffer أي الأرقام، وفي اللغة الفرنسية Zero) وكذلك ما عرف في أوروبا باللوغاريتمات العربية التي هي من عمل الخوارزمي، وبدورها وصلت إلى أوروبا، وترجمت أعماله إلى اللاتينية في القرن 12 وظل حتى القرن السادس عشر أهم كتاب في تدريس الرياضيات في الجامعات الأوروبية.

والأعمال الرئيسية في الكيمياء للعالم الكبير جابر بن حيان (الكيمياء) وهو مؤلف عام 770 ويتضمن ما توصل إليه هذا العالم في الدرجة الأولى من النتائج العملية للتجارب. فهو يقدم مساهمة مهمة في عرض مواد جديدة والحوامض والكحول Al Kohol وإلى جانب ذلك فقد تمكنوا من تحسين صناعة الميزان من أجل وزن دقيق، ثم صنعوا أول جهاز للتقطير.

وهناك معارف أخرى جمعها هؤلاء الأساتذة أيضاً في علم البصريات حيث أثبت العالم ابن الهيثم (في اللاتينية الحسن Al Hazan المتوفي عام 1059) أن العين تؤدي واجبات العدسات، وأثبت ذلك علمياً.

وفي مجال الفيزياء الجغرافية نجح العالم الخوارزمي مع تسعة وستين على أساس ما كان قد توصل إليه بطليموس من تخطيط الخارطة الإسلامية الأولى للعالم والأفلاك، وقد استخدمها الجغرافيون الشرقيون كأساس حتى القرن الرابع عشر. ومن خلال التوسع الكبير للإمبراطورية وازدهار تجارتها البعيدة المدى، فقد تطور إلى جانب ذلك فرعان من الأدب الجغرافي، وبدرجة مهمة : الأول منها كانت كتب الأشعار العملية، فهي إلى جانب كونها وصفاً طبوغرافياً (وصف طبيعة الأرض والتضاريس وأبعاد الثابت منها على الخارطة - المترجم) فأنها تضم أيضاً وصفاً اقتصادياً واجتماعياً، وقد عاينها مؤلفوها، على سبيل المثال اليعقوبي (المتوفي عام 897) في ولايات الخلافة، والثانية كانت الأعمال الجغرافية المنظمة كأعمال المقدسي (مولود عام 946) التي ظهرت في عهد الغزو المغولي الأول في المعجم الجغرافي لياقوت (1179-1229) وكانت بذلك نقطة الذروة. وهذه الأعمال الكثيرة في مجالات التاريخ، الاجتماع والثقافة التي تضم معلومات مفصلة.

وعلى صعيد علم التاريخ، بدأ المسلمون بكتابة السيرة، التي تضم سيرة حياة الرسول محمد (ص) كابن إسحاق المتوفي عام 767، وأبن هشام المتوفي عام 834، وأبناء الفتوحات الأولى للعرب الواقدي (المتوفي عام 822) والمؤرخ البلاذري (المتوفي عام 892) مع وصف منتظم للفتوحات العربية. وكانت هذه المرحلة الجديدة في كتابة التاريخ هي مشخصة من خلال ظهور أعمال أجزاء متعددة عن تاريخ العالم، وكان مؤلفوها يكتبون تقاليد وسير متفاوتة، وعلم الإنسان، وغالباً ما تكون نموذج وسياق، تجميع الأحاديث، التأكد من مصداقية الأحداث. ومن المؤرخين البارزين في هذا الاتجاه : ابن قتيبة (المتوفي عام 889)، والدينوري (المتوفي عام 895) وكذلك اليعقوبي الذي اشتهر كجغرافي أيضاً، وهناك المؤرخ المشهور ، وأستاذ طريقة كتابة التاريخ على حسب تسلسل السنين، الطبري (8383-923) الذي في إطلاعه الواسع على تاريخ العالم وأسلوبه في تتبعه لأحداث التاريخ بطريقة الكرونولوجي Chronologie (كتابة التاريخ حسب تسلسلها الزمني - المترجم) قد أصبح مثلاً في هذا الأسلوب.

أما المسعودي "هيرودوت العرب" المتوفي عام 956 فقد أنتهج نهجاً آخر في أعمال الموسوعة التاريخية - الجغرافية: فهو قد جعل الأحداث التاريخية في مجموعها، في

تطور العوائل والأسر والشعوب، ثم جاء من بعده ابن خلدون العربي الأكثر أصالة، فيلسوف التاريخ، وأحد أعظم المفكرين في العصور الوسطى، الذي تابع عمل المسعودي.

والجهود من أجل نظرة فلسفية شاملة وبالدرجة الأولى الأرسطوطاليسية والأفلاطونية الجديدة، وذروتها للإسلام، أي من أجل عقلانية مدعمة بالحجج للدين، وهي مترابطة بشكل لا يقبل الانقسام مع ثلاثة من الفلاسفة المسلمين في العصور الوسطى الذين برزوا في المشرق وهم: الكندي (المتوفي عام 873) فيلسوف العرب الفارابي (واسمه باللاتينية Alfarabius المتوفي عام 950) الذي يرجع في أصله إلى تركستان (فاراب) في أواسط آسيا، والفارسي ابن سينا (المتوفي عام 1037).

والكندي تحول كأول فيلسوف عربي إلى الأرسطوطاليسية ومدرسته الفلسفية التوفيقية Eklektizismus وهي ضد التأملات النظرية اللاهوتية التي تمثلها التعاليم الإسلامية المتشددة وعلينا أن ندرك بأن العلوم الطبيعية، وقبل كل شيء الرياضيات هي التي تمثل الأساس في الأفكار الفلسفية. وقد كتب الفارابي أيضاً حول المدينة المثالية العربية، بحسب المثال الذي كان أفلاطون قد كتبه مؤكداً على ضرورة دراسة علوم العالم. وفي الختام مثلت الفلسفة الجوهريّة للشرق المسلم، لابن سينا بأفكاره مع ابن رشد اللاهوتية الأوروبية التي أثرت بعمق في فهم أبدية وجود الجوهر (المادة) الذي كان في نظامه الفلسفي ذو تصورات مثالية ترتبط بمبادئ مطلقة (الله) وإلى جانب ابن رشد (اسمه باللاتينية Averroes) كان ابن سينا يعتبر ممثلاً مهماً لنظرية "الحقيقة المزدوجة" التي تضم نقداً صريحاً للرؤية الدينية للعالم وإبراز أهميتها للناس، وفي نفس الوقت من أجل تأكيد ضرورة وجود الفلسفة إلى جانب الدين. (أطلق عليهم الدهريون، ويقابلهم في لاهوت المسيحية السكولاستيون - المترجم).

وعلى الرغم من أن فلسفة كهذه لا تهز أرضية الإسلام، فقد أكتفى التيار المنتهتد بتأكيد الضرورة للبرهنة العلمية على أهمية الإدراك الحسي في عملية المعرفة والاستحقاق العام لتعميق المعارف في حقل العلوم الطبيعية من أجل خوض معركة صريحة ضد أطروحات الفلاسفة، التي أندفع إليها بصفة عامة اللاهوتي الإسلامي الكبير الغزالي. ومن جهة أخرى لم يكن مستغرباً أن هؤلاء الفلاسفة بصفة عامة وجدوا في التيار الشيعي الإسلامي دعماً معنوياً ومادياً.

إن الحركة الأدبية للشعبوية وبسبب انبثاقها في المدن، كانت متأثرة بشكل جوهري بهذه الروح ومؤثرة على سير تطور الشعر والنثر القصصي في فجر العصر العباسي. وهناك اثنان من الشعراء المنحدرين من أصل فارسي، عاشا في المدن بإمكانات معيشية مرفهة، أطلقا العنان للعواطف والغرائز، في تناول الخمر الذي حرّمه القرآن، وفي رفض صريح للنتهتد الإسلامي، وهما: بشار بن برد (719 - 783) وأبو نؤاس (762 - 813) والحقيقة أن كلا الشاعرين وغيرهم كثيرون كانوا فاعلين في بلاط الخليفة وتلقي أعمالهم الضوء على حياة البلاط.

وإلى جانب هذه المتع والمباهج، عاد الشعر ودخل حياة الزهد، وقد مثل ذلك الشاعر المنفوق شعرياً ولغوياً أبو العتاهية 748-825، وكذلك الاهتمام بالشعر البدوي القديم. ومن الذين الذين يستحقون الذكر في هذا المجال هو الشاعر أبو تمام 809 - 845، والشاعر البحري 821 - 897.

وشهدت القصة العربية طفرة جوهرية على يد الفارسي ابن المقفع 721-757، والتي هي جمع لأمثال هندية (كليلة ودمنة) والمنقولة عن الفارسية الوسطى على العربية. وفي نفس الوقت فقد أضيف إليها وجرى تعديلها وتهذيبها. وقد ترجم عمل ابن المقفع هذا إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر، كما أنها لم تكن تخلو من التأثيرات العظيمة على الفن في أوروبا. كما برز الجاحظ 775-868، كأب حقيقي للقصة العربية وهو معلم وموسوعي المعرفة، فهو الذي ألف حوالي 200 كتاب في مختلف العلوم المعروفة في ذلك الوقت وعرف بذكائه الثاقب وأسلوبه الساخر ومقالاته الشهيرة.

وبلغة رائعة، وأسلوب أنيق يليق ببلاط، تطورت القصة العربية نتيجة لتنامي تبعية الشاعر والدعم المالي من مشجعي الشعر. وعلى الرغم من أن الجاحظ كان غالباً ما يأخذ شكل المنتشر الذي يعكس حياة وأوضاع الفئات السفلى والمتوسطة في المدن، والمقامات التي هي أدب مجمع على شكل اقصوصات درامية، على سبيل المثال بديع الزمان الهمداني 969 - 1008، والحريري 1059 - 1122.

وفي علاقة ذلك بالانهيار السياسي للخلافة، ويتقدم الإسلام المتشدد، فقد ظهرت حوالي نهاية القرن العاشر الظواهر الأولى على ركود التطور الثقافي، على أنها سوف تظهر بشكل محلي ومحدود في بعض دول الإقطاع في المشرق العربي .

1. Filshinsky, I, M : Arabia Literature , s: 83 Moskau 1966

مبحث 5 الفصل 4
Geschichte der Araber : teil 1 Leipzig 1974

حادي عشر: الثقافة العربية الإسلامية وأوروبا

Prof. Dr. Gerhard Höpp

بروفسور. د. غيرهارد هيب

أرتبط التطور الثقافي في شمال أفريقي الإسلامية وفي أسبانيا أرتبط بشكل جوهري بالخلافة في المشرق العربي، وتستحق الاهتمام تلك المساهمات من العناصر غير العربية أيضاً في هذا المجال ومنهم اليهود والبربر، بالإضافة بالطبع للعرب، في سبيل نهوض ثقافة عربية - إسلامية سواء كانت المساهمة في الخلق أو الإيصال، وهذا يختص بدرجة رئيسية في ميدان الآداب.

ومما هو عظيم الأهمية في هذه المنجزات والجهود، جاء على الأقل في دور ومهمات شمال أفريقيا وأسبانيا كوسيط لمكاسب كثيرة للثقافة العربية الإسلامية إلى أوروبا في العصور الوسطى. وبدرجة رئيسية اليهود وعرب أسبانيا Mozararabern كانوا يستحقون الذكر من خلال الترجمات للأعمال الأوربية والمعارف والتكنيك والعلوم الطبيعية والفلسفة، وقاموا بتعريفها. ومن خلال الخلافة العربية - الإسلامية استفادوا منها بصورة فعالة وقاموا بتطويرها. والعلاقات التجارية المتينة التي كانت بين شمال أفريقيا الإسلامية وأسبانيا من جهة، والعلاقات مع مدن جنوب فرنسا وشمال إيطاليا التجارية من جهة أخرى، وفرت لأوروبا الفرصة في إقامة اتصالات مثمرة مع الثقافة العربية الإسلامية.

وهناك عدد كبير من العلماء الأفاضل في أوروبا من خلال العصور الوسطى الذين كانوا يتعلمون باللغة العربية مثل: أرد فون باث 1090 - 1160، ميخائيل سكوت Michael Scott المتوفي عام 1235، وكانوا يدرسون في الجامعات الأسبانية ومدارس الترجمة كانت منظمة وعلى رأسها تلك التي في طليطلة التي كان يديرها دمنغو غودي سالفو، Domingo Coudisalvo في القرن الثاني عشر، كانوا يهتمون بترجمة الأعمال العربية إلى اللاتينية وإلى العربية والأسبانية. وحتى القرن السابع عشر كانوا يعنون بدرجة رئيسية في مجالات الطب وعلم الدواء (الصيدلة) وكانت هذه الكتب تستخدم في الجامعات الأوربية.

والتكنيك وصناعة الورق التي تطورت في الصين كانت قد وصلت في القرن الثاني عشر عبر سمرقند إلى مراكش ومنها إلى أسبانيا. وطواحين الورق (ورشة لإنتاج الورق، أي أقل من مصنع، يتجنب المؤلف تضخيم الأشياء - المترجم) طرحت مادة رخيصة للكتابة وبكميات كبيرة ومكنت الفرصة من أجل أنتاج واسع من الكتب. ومنها صار هناك سوق للكتب والمكتبات الخاصة ومكتبات الجامعات في البلاد الإسلامية العربية. وهكذا تنقل لنا الأخبار أن مكتبة عبد الرحمن الثالث كانت تضم 400,000 مجلد. وتملاء فهارس المكتبة وحدها 44 مجلداً. ومن خلال العلاقات الثقافية مع أسبانيا والمغرب في القرن الثالث عشر انتقلت أسرار صناعة الورق إلى إيطاليا (للمرة الأولى كان في شباط 1276).

وربحت جنوب أوروبا بصورة رئيسية وقبل غيرها، من صناعة النسيج الأسبانية التي كانت مزدهرة في كل العهود، وبفضل تأثيراتها تطور في جنوب فرنسا صناعة النسيج. وهذا الأمر ينطبق أيضاً مع الصناعات الجلدية ومنتجاتها التي كانت في أسبانيا ومراكش

قد وصلت إلى مرحلة متطورة. وتضم اللغة الفرنسية اليوم مصطلح كوردونيري Cordonnerie وهي شهرة صناعة الأحذية في قرطبة.

والمساهمة الحاسمة قدمها المغرب الإسلامي فيما يسمى بتطور الأرقام العربية في أوروبا. بعد أن تعرف الخوارزمي في القرن التاسع بعبقرية على الشكل الرئيسي للأرقام الهندية واستخدامها. كانت متواجدة في أسبانيا وهي شبيهة وهي شبيهة بالأعداد الأوربية الحالية، وهذه الأعداد طورت من قبل الأستاذ الأوربي جيربرت 930 Gerbert - 1003 الذي أصبح لاحقاً البابا سلفستر الثاني ثم بدأت في استخدام في أوروبا تدريجياً.

وعالم الرياضيات الإيطالي ليوناردو فيبوسسي 1170 - 1240 وهو من بيزا سكن لفترة طويلة في شمال أفريقيا(بويجي) ثم ساعدهم في زحفهم المنتصر إلى أوروبا.

ومن أهم الفلكيين في ذلك الوقت، كان الفلكي الرزكالي المولود في قرطبة 1029 - 1087 المعروف في أوروبا كطبيب. وفي طليطلة المركز الروحي السابق في أسبانيا، حيث عمل بجدية وطرح نظريته من خلال الملاحظات ومن خلال اختراعه للعديد من الآلات الفلكية، وحضي بتقدير كبير لدى كوبرنيكوس لدقة وضبط أعماله.

وقد كان بحق أكبر الأطباء المسلمين في أسبانيا(الزهراوي) المتوفي عام 1013 الذي عاش في بلاط الخليفة الأموي الحكم الثاني. وقد دخل هذا العالم، كجراح ممتاز في موسوعة الطب مع كتابه المشهور "كتاب التصريف لمن أجاز التأليف" وقد ترجم هذا الكتاب في أوروبا من قبل العلماء ومنهم جيراردو دي كريمونا Gerardo di Cremona 1114 - 1187 وظل معتمداً في الجامعات الأوربية لعدة قرون كمادة تدريسية في قسم الجراحة و علم الأدوية والصيدلة.

وكان علم الصيدلة مترابطاً بصفة وثيقة مع علم النبات، فمن الممثلين الرائعين لهذه العلوم، العالم أبن البيطار من ملقا، المتوفي عام 1248، الذي واصل سفره على مصر واليونان وإلى آسيا الصغرى، وكان يجمع النباتات التي تساعد على الشفاء والأدوية التي وضعها في اثنين من أعماله المهمة ونظمها في كتابه " كتاب الجامع في الأدوية المفردة" وفيها يستعرض أكثر من 1400 صنفاً من الأدوية منها حوالي 300 غير معروفة.

ويظهر ابن سينا مثلاً عن قدم العلاقة بين العلوم الطبيعية والفلسفة عند مفكري المذهب العقلاني العربي - الإسلامي وكم هي وثيقة. و لم يكن فلاسفة المسلمين في شمال أفريقيا وأسبانيا كذلك ليستثنوا من ذلك، والأهم والأعظم بينهم كان ابن رشد الذي طور الأعمال التي كان قد قام بها أشهر العلماء الذين كانوا قد سبقوه أو عاصروه إلى أعلى درجات التطور. وهنا وقبل كل شيء العالم أبن باجة المولود في سراغوستا 1106 - 1185 الذي كان في بلاط الموحدين في فاس. والكتاب الوحيد الذي نشر عنه، رواية " حي بن يقظان" الذي ترجم عام 1671 إلى اللغة اللاتينية من قبل بوكوك Poccock . وقد ضمنها أبن طفيل آراؤه الفلسفية والنظرية التي ثمنت عالياً. وهؤلاء جميعاً وكذلك الفيلسوف اليهودي الميموني 1135-1204، والعالم الرائع المولود في قرطبة أبن رشد 1126-1198، وكان ذو فاعلية وقد استدعى إلى فاس من قبل المنصور(من حكام الموحدين) في عام 1182 كطبيب. وكان قد عمل في مدينته وكذلك في سفيليا كقاضي، وكناقد وعالم لأرسطو. وللفارابي، لأبن سينا وأبن طفيل، تمكن من تطوير نظامه الفلسفي الخاص،

(الرشدية) Averroismus وهي ذات تأثير عظيم على المفكرين التقدميين الأوربيين في العصور الوسطى.

إن نقطة الانطلاق في فلسفته العقلانية كانت في الاعتراف بالمادة كأساس للأشياء. وبالنسبة له كان الله هو الوجود وهو وحده بإمكانه الخلق، عندما يكون مصدر الإمكانية متوفراً وهو المادة. وقد رفض ابن رشد ابن رشد بصفة خاصة الدوغماتية التي طرحها الغزالي كمثل للاتجاه الديني المتشدد" استقرار عمل الكون(الخليقة) وكان يدعى على العكس من ذلك، أنه ليس شيئاً مطلقاً وإنه لا توجد نهاية مطلقة، بل يوجد فقط التغيير الذي تقرضه الحتميات التي تقوم عليها الطبيعة.

والمحتوى والشكل في وجهة نظره شيء لا ينفصل. وبرأيه فإن المادة تضم جميع الأشكال وتنتجها من ذاته بنفسها. وانطلاقاً من ذلك طُوّر نظرية ابن طفيل التي يؤكد فيها الوحدة بين الأمكانات(القدرات) والواقع المتحقق، وإن العلاقات فيما بينها تجاه بعضها البعض هي نسبية. أو أن الكون موجود إلى الأبد ويجب على كافة الفرص تتحقق مرة. وعلوم ابن رشد في مجال الفلك قادت إلى نتيجة، أن أعاد لها قدرة الحركة الخاصة بها، التي ليس لها بداية ونهاية. وقد توصل إلى الاستنتاج المهم، أن الحركة الأبدية، الخلق هي صفات الواقع الموضوعي للمادية.

إن نظريات ابن رشد في المعرفة هي تطوير لما كان ابن سينا وابن طفيل قد أدركه. وبحسب رأي ابن رشد، أن عملية المعرفة تبدأ مع الشعور والإحساس بواقع الأشياء ومنها العقلنة في مفهومها المجرد.

وأراء ابن رشد السياسية مترابطة مع الفارابي وأبن باجة، وهو رأي في هذا الجانب، أن السعادة الخالصة للإنسان إنما تكمن في معرفته لجوهر الأشياء. وفي هذا الشأن أظهر نفسه باعتباره أول مفكر كان ضد احتقار المرأة، ومكانتها في المجتمع العربي ت الإسلامي للعصور الوسطى التي لا تسمح لها بإظهار وإثبات قدراتها فيه.

والآراء الفلسفية لابن رشد أثرت بشكل بليغ على الأقطار الاجتماعية في العصور الوسطى الأوربية، ويذكر فون برابانت Siger von Brabant 1240 - 1282 وبويتوس فون داكين Boetius von Dakien استندوا إلى أفكار ابن رشد في صراعهم مع توماس الأكويني Tomas von Aquin والبرتو ماغنوس Albertus Magnus والفلاسفة روجر باكون Roger bacon 1219 - 1294 وبييترو بومبونازي Pitro Pomponazzi ولوسيليو فانيني Lucilio Vanini 1585 - 1619 والفلاسفة الماديون الإنكليز في القرن السابع عشر ثمنوا وقدروا الأثر الفلسفي الثري لابن رشد. وقد تصدى ابن رشد في بلاده، الأندلس لمقاومة سيادة الإقطاع وللمتشددية الإسلاميين الذين نفوه على أسبانيا عام 1194 ولاحقاً تعرضت ربما كتبه وأعماله للحرق.

وفي مجال التاريخ، فإن أسم ابن خلدون، وهو المولود في تونس 1382 - 1406 حاز على أرب الفلاسفة العظام العرب والمسلمين. وقد اكتسبت آراؤه من خلال سفراته الكثيرة وبتعدد المهمات السياسية، اكتسبت بعداً تاريخياً ضمنها في عمله الرئيسي "كتاب العبر" والجزء الأول منه هو "المقدمة" أسست مجده كمفكر اجتماعي.

وينال ابن خلدون الفضل والاستحقاق بأنه أول مؤرخ عربي / مسلم استطاع أن يستخدم نظريات الفلسفة المادية للكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وآخرين غيرهم في تفسير الظواهر في المجتمعات الإنسانية. وفي كتابه "المقدمة" طرح نبذة اجتماعية، نظرية حتمية التطور التقدمية للمجتمعات السفلى إلى العليا التي تتحقق من خلال تطور شكل النشاط الإنتاجي والإنساني.

وبالنسبة لأبن خلدون، فإن الحياة في المجتمع البشري ليست تراكم تصادفي من الحقائق والأحداث، بل أن هناك قوانين تسيطر على الأشياء. أنها ليس ساكنة، بل أنها خاضعة لتحويلات دائمة. هناك حركة تشكيلات (تكونات) مستمرة دائمة لإمبراطوريات ومجتمعات، وهي مستقلة عن التدابير فوق الطبيعية (ميتافيزيقية) هذا التطور الحتمي خاضع للحياة المادية للمجتمع والحتمية وليس شيء آخر هو مصدرها.

ويوضح ابن خلدون، أن الأشكال المختلفة للحياة الاجتماعية، ناجمة عن تطور الإنتاج، وأنه يلاحظ اتحاد البشر ضمن مسيرة العمل بوصفها شرط القوة للتغيرات الهائلة في أنماطهم.

إن الأنجازية العلمية العظيمة لأبن خلدون اعتبرت لوقت طويل مناقضة للفلاسفة العرب والمسلمين. واليوم ما زالت تحوز لدى المؤرخين والفلاسفة وعلماء الاجتماع التقدميين في جميع أرجاء العالم القيمة العالية لما توصل إليه ابن خلدون.

وأحد معاصري ابن خلدون البارزين، كان الرحالة ابن بطوط 1303 - 1373 المولود في طنجة. وقد أوصلته رحلاته الطويلة أوصلته إلى الهند والصين وإلى سومطرة وإلى أعماق أفريقيا. وعندما عاد إلى مراكش، بدأ بتكليف من الحاكم المارني أبن عنان، بإملاء تقارير عن أحداث رحلاته ومشاهداته على جوزي الغالب (المتوفي 1356)، ثم نشرها وقد اشتملت على تقارير من رحلة آخرين لا يقلون أهمية، مثل: أبن جبير 1145 - 1217، في كتابه "تحفة النظر في غرائب الأمصار وغرائب الأسفار" والتاريخ يشكره على الأخبار الفائقة القيمة عن العلامات الاجتماعية في أفريقيا القديمة.

ومن أهم الجغرافيين وعلماء الخرائط في ذلك العصر: الإدريسي وهو ينتمي غلى عائلة الأدارسة (قرشيين هواشم) الذين حكموا المغرب، ولد في سويتا، ودرس وتعلم في قرطبة، وكان الجزء الأعظم من حياته وأعماله في باليرمو (عاصمة صقلية) في بلاط الملك النورماندي روجر الثاني Roger ملك صقلية. وبناء على طلبه، ألف الإدريسي أهم أعماله بما في ذلك " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" ويدعى أيضاً كتاب الروجر. والكتاب يحتوي على صفحات فضية منقوش عليها خارطة العالم، وكذلك تضم حشداً من المعلومات والإيضاحات والمعالجات الجغرافية، وبشكل خاص تضم الخرائط التي أصبحت لاحقاً مشروع خرائط ميركاتور Mercator وفيها إيضاحات عن صورة أوربا في ذلك الوقت.

إن إنجازات الشعوب الإسلامية في شمال أفريقيا وإسبانيا تركزت في مجالات الأدب والفن وقبل كل شيء الفن المعماري وكذلك في التكنيك والعلوم الطبيعية والعلوم الروحية. وعلى الرغم من أن البداية كانت قوية تحت تأثير الأدب العربي المشرقي، فقد تطورت في إسبانيا أشكال أصيلة توفر المناسبة للحديث عن أدب عربي / أندلسي، ونؤشر هنا في المجال المساهمات الفريدة من عناصر الشعر الشعبي المتغلغلة، التي تبرز

بدرجة رئيسية بشكل لغة شعرية. وقد تحقق هذا النمط في القرن التاسع وكان يقابل في المشرق العربي شعر "القصيدة" تحت تأثيرات الشعر الشعبي الروماني الذي سمي "الموشح" وهي مقاطع شعرية انسلخت عن الزجل في القرن الثاني عشر. هذه المقاطع الشعرية من الشعر الدرامي التي تضم الموشح في هيكلها، تظهر بشكل مقنع تأثير ونفوذ الشعر الشعبي الأسباني، وفوق كل اعتبار، التقاليد الكلاسيكية للشعر العربي التي نظم عناصر من اللغة العامية العربية - الأندلسية، المتأثرة بالبربرية والرومانية. ومن أروع من يمثله، هو الشاعر القرطبي ابن كوزمان 1080-1160 وهو مغني متجول يغني للحب والخمر. وقد مارس الزجل الشعري الأندلسي تأثيراً ونفوذاً معيناً على الشعر الشعبي الإيطالي وعلى المتحدثين بلغة بروفينتسال (وهي لغة الرومان الغربية، وكانت تشمل العديد من المناطق الأوربية - المترجم) والتي بدورها أثرت على أساطير الحب الألمانية.

ومن المفترض أن القافية قد انتقلت من الشعر العربي إلى الشعر الروماني. والمغني المتجول ابن كوزمان أستخدم في أغانيه العود لعزف الموسيقى لمرافقته مع الكلمات في زجله، والذي أصبح من الآلات المفضلة لدى الأوربيين والمغنيين الشعريين.

ومما يستحق الذكر بصفة خاصة، هو الأنجازية الخلاقة لشعوب شمال أفريقيا وأسبانيا التي أضافتها إلى الفن العربي - الإسلامي في منطقة البحر المتوسط لا سيما في مجال المعمار. وحكام شمال أفريقيا وأسبانيا في تأسيسهم لأبنية فخمة، قصور، جوامع، حصون، مدارس، والتي تمثل إلى يومنا شواهد على جمال البناء والمعمار.

وإلى أسبانيا تسالت عناصر من الأنماط المغربية كما تداخلت الأنماط الغوطية، والرينسانس (عصر النهضة) سوية وكونت معاً نمطاً جديداً يطلق عليه موزارابيان Mozarabian وموديارستيل Mudjarstil وهو ما يفصح عن نفسه قبل كل شيء من خلال استخدامات العديدة لقوس الحدوة، وزخارف الجبس والمنارات الغليظة المستطيلة الشكل. ومن أهم الآثار المعمارية التي مازالت موجودة حتى اليوم والتي تعود إلى القرن الثامن، الجامع الأموي الكبير في قرطبة، والذي بنى في عهد الموحددين، الجيرالد في سيفيليا في القرن الثاني عشر، وقصر الحمراء لملوك الناصريين في غرناطة الذي بنى في القرن 14/13 والذي مثل فن الركوكو العربي.

ومن الشواهد الأخرى على تداخل الفنون في شمال أفريقيا هي من بين كثير غيرها : المنارة القطبية التي بنيت في القرن الثاني عشر في عهد الموحددين (المنصور) في مراكش، وكذلك جامع حسن الذي شيد في عهد المارنيين (أبي يعقوب) في القرن الثالث عشر في الرباط.

ومن الآثار التي تدل أيضاً على التطور العالي في شمال أفريقيا وأسبانيا، هي أعمال الحفر والنقش على العاج والخشب والأعمال الفنية ومنها الأعمال الحديدية (الأسلحة) والخزف (السراميك) والمنسوجات.

والفن الماوري (العربي الإسلامي الأندلسي) Maure في المعمار مارس نفوذاً قوياً عبر أسبانيا وصقلية على أوروبا في العصور الوسطى ولا سيما في إيطاليا.

هذا التقرير هو المبحث السادس ومن تأليف د. هيب ، من أكاديمية العلوم الألمانية، وهو قسم من الفصل السادس/ الجزء الأول، صفحة 239 وحتى صفحة 248 ، من موسوعة تاريخ العرب ذو الأجزاء السبعة تأليف فريق من العلماء والمستشرقين برآسة البروفسور دكتور لوثر راتمان، بجامعة لايبزج/ ألمانيا.
صادر في برلين / 1975 عن دار النشر الأكاديمية.

Lothar Rathmann Geschichte der Araber , Tei , 1 , Berlin 1975

أحد عشر: التعبيرات الأيديولوجية للنضال المعادي للاستعمار

Dr.Gerhard Hipp

د. غيرهارد هيب

* أود أن ألفت انتباه القارئ الكريم إلى قراءة هذا الفصل بعناية وانتباه شديدين، فهو ينطوي (بتقديري) على تحليل دقيق وعميق لأبرز التيارات والاتجاهات الفكرية والثقافية والحضارية في الوطن العربي، بصرف النظر عن اتفاقنا مع هذه الآراء أو اختلافنا. والكاتب د. هيب هو واحد من أهم العلماء في أكاديمية العلوم الألمانية (جمهورية ألمانيا الديمقراطية).

المترجم

إن الانتعاش في النضال التحرري الوطني للشعوب العربية، والذي استلهم من ثورة أكتوبر/ 1917 وجد التعبير عنه لصورة واضحة وجليّة في الصراعات الأيديولوجية المحتدّة في الأقطار العربية في تلك المرحلة حيث كانت الجبهات الأيديولوجية قائمة على الأسس الموضوعية والذاتية لوجود وشروط نضال الحركة الوطنية الناهضة. وبصفة خاصة في الهيكلية الاجتماعية المتقدّمة والتي كانت بعيدة عن التطور، وهكذا تتفاعل الآن، بما يستحق الملاحظة، احتدام النضال المعادي للاستعمار وأيضاً نبرة الخطاب الوطني للطبقات والفئات المختلفة على شكل تيارات أيديولوجية معينة في عملية استقطاب متزايدة، وبذلك تصبح رؤية الصراع الأيديولوجي سهلة في المواجهات المنتشرة بصفة واسعة.

هذه العملية جرت بصفة خاصة في البلدان التي لها علاقة بالتشكل (التكون) التدريجي لعناصر العلاقات الرأسمالية، وفي ذات الوقت أيضاً كانت هناك التناقضات بين مفاهيم مختلف الطبقات وفئات المجتمع على كافة الأصعدة والتي بدأت تتعمق، وكان هذا يعني من جهة، بأن النضال الذي تقوده الطبقات البورجوازية للجماهير العربية من أجل الاستقلال الوطني قد وجد شكله الأيديولوجي المعبر والثابت. ومن جهة أخرى، وكان ذلك انعكاس دياكتيكي للتأثيرات المتبادلة بين الوطني والاجتماعي في تركيبات النضال الأيدلوجي للتغير في أشكالها ومستوياتها، وليس هناك ثمة شك بأن هذا التطور أيضاً وبناء على تلك الحتمية الموضوعية، والتي عبر عنها لينين في سياق آخر بقوله: " كلما كان النهوض الجماهيري العفوي قوياً، كلما أصبحت الحركة عريضة وواسعة، وسريعة أيضاً، وليس لسرعتها مثيل، وتنمو الحاجة إلى الوعي ". (1)، وكلما " انتشرت واتسعت الحركة الشعبية كلما أتضحت أكثر الطبيعة الحقيقية لمختلف الطبقات ". (2)

تعرضت هذه الاتجاهات في الأقطار العربية القمع سواء في تشكلها أو في التطور النظري والتوسع جوهرياً في أربعة تيارات مختلفة من حيث المحتوى والشكل، التي تعبر عن مصالح وأهداف مختلف الطبقات الاجتماعية. كان البعض منها قد تكون في المراحل المبكرة للحركة الوطنية. وكان الأمر يدور بصفة خاصة عما يسمى بحركة تحديث

الإسلام وكذلك عن القومية العربية التي كانت على صلة وثيقة مع نشأة علاقات الإنتاج الرأسمالية في الشرق الأوسط وكذلك التنوير البورجوازية المبكرة التي كانت قد نهضت في النصف الثاني للقرن التاسع عشر. وتلك الحركة التي مثلت بصفة عامة أساس القاعدة الأيديولوجية للبورجوازية العربية، والأخرى، التي وإن لم تكن معروفة أو ملفتة للنظر حتى ذلك الوقت، حركة اشتراكية للبورجوازية الصغيرة. وقد بدت الظاهرة الجديدة للمرة الأولى في أقطار الشرق العربي في نهاية القرن التاسع عشر. وكذلك في مصر من خلال تأسيس أحزاب شيوعية في الأقطار العربية، وتأثير الأفكار الماركسية اللينينية التي كانت قد اتسعت بصورة كبيرة. وتحت ظل شروط وظروف صعبة، كان الشيوعيون العرب يمثلون مصالح البروليتاريا ووقفوا في الصفوف الأمامية للنضال من أجل التحرر الوطني والاجتماعي، وقد سعوا إلى ترجمة التعاليم اللينينية والدروس الشيوعية الحقيقية إلى لغة شعبيهم.

وكانت المسألة الرئيسية في هذه التيارات الأيديولوجية، الصراعات الروحانية في المرحلة الجديدة لنضال الشعوب العربية المعادي للاستعمار. إذ كانت العلاقات المميزة لمرحلة التحرر العربية هذه، قد تمثلت ابتداءً في كفاح جميع الطبقات والفئات الاجتماعية تقريباً، من أجل الاستقلال بقيادة القوى البورجوازية. وقد ظهرت اتجاهات التصادم ضد الإقطاع وضد الاستعمار في مفاهيم هذه الأيديولوجيات موضوعياً كمركبات جوهرية في تعارض الأفكار في تلك المرحلة.

وقد كانت في ذات الوقت (وقد جعلت الفعاليات السياسية الأيديولوجية للشيوعيين العرب من ذلك أكثر وضوحاً، وكذلك بعض وجهات النظر للحركات الاشتراكية للبورجوازية الصغيرة)، ابتدأت مركبات معادية للرأسمالية تتشكل أيضاً في حركة التحرر. وهذه الظواهر بالذات جعلت من الممكن رؤية أو أدراك، أي أهمية تكمن في فحص التعبيرات الأيديولوجية سواء في طبيعتها أو في مهامها، وكذلك على أصعدة النضال الأيديولوجي في هذه المرحلة، في أنها لا تمنح فقط إيضاحات ومهمة حول حالة الإدراك، في حركة التحرر الوطنية والقومية، ولكنها تتوسط (دور الوساطة - المترجم) إلى معارف أخرى مهمة أيضاً، لا بد منها لتفهم الصراعات الروحية التي تدور الآن في الأقطار العربية.

لذلك، وفي الصفحات التالية، سنقدم وصفاً موجزاً لبعض وجوه النضال الأيديولوجي لتلك المرحلة، ومن الطبيعي أن هذه الظواهر ليست متوفرة في جميع الأقطار العربية (3) وأنه لمن الملاحظ ولأسباب تقنية عملية تستوجب تصنيف الظواهر التي ستعرض هنا، التيارات غير البروليتارية، أو التي لا ينبغي أن تضلل على أنها كذلك، وعزلها عن بعضها وعن سائر التطورات الاجتماعية في الأقطار العربية، بل وأكثر من ذلك، الإحاطة بالتناقضات النظرية والسياسية ونبذه عن التعقيدات وتعدد وجوه النضال الأيديولوجي، والتي جرت في حالات كثيرة في السابق كما اليوم، في بعض الأقطار العربية تحت ظل ظروف وشروط جديدة.

أولاً : الإسلام والنضال المعادي للاستعمار:

إذا أردنا بحث دور ومهمة الإسلام كوسط أشكالي رئيسي، فنحن لسنا بحاجة إلى الإسهاب في أسباب ذلك. إن تاريخ العرب يشير إلى أمثلة لها أهمية عظيمة للدين الإسلامي في كافة مجالات وفروع الحياة الاجتماعية وفي أفكار البلدان العربية ضد حملات الغزو الأجنبية والمضطهدين، كما تطرح لنا على سبيل المثال، بأهم (العرب)

خاضوا تحت راية الإسلام وتحت شعار الجهاد، النضال ضد المستعمرين المحتلين البرتغاليين، وكذلك في نضال الوهابيين ضد الطغيان العثماني، وفي حركة انتفاضة المهديين ضد البريطانيين، والسنوسيين ضد الاستعماريين الإيطاليين، وهي أمثلة لا يمكن تجاهلها.

هذه الأمثلة وغيرها كثيرة، تؤكد وتثبت بصورة مؤكدة الحقيقة العلمية التي توصل لها ف. أنجلز، بأن الرؤية الدينية للمسلمين " لها تأثيراتها الفعالة على مسيرة النضال التاريخ. وفي حالات كثيرة يكون لها شكلها الغالب" (4) وهي تثبت في نفس الوقت أن الإسلام لم يكن قط نظاماً أيديولوجياً متجانساً، بل أكثر من ذلك، فكما ويشير لنا التاريخ، بأن قوى اجتماعية مختلفة بحثت حاولت تبرير مساعيها ووجدتها، من أتباع الحلقات الإسلامية الأولى، فيما كان احتجاجهم السياسي والاجتماعي ضد سيادة النظام في اليهود الإسلامية الأولى، أو عبرت عن نفسها بانتفاضات الفلاحين المضطهدين، والحرفيين، أو في انتفاضات مجاميع عرقية ضد تسلط الإقطاع الإسلامي والتي كان أكثرها تحت راية شعبية جماهيرية، وكلها تظهر سواء كان المستغلون أو المستغلين من الديانة الإسلامية هم في خدمة مصالحهم الأصلية، وهي مفهومة على هذا النحو.

وكلتا الرؤيتان وهما أيضاً عند تقرير دور ومهمة الإسلام في نضال الشعوب العربية المعادي للاستعمار. وفي هذه المرحلة من النضال الوطني التحرري، فقد أمثلت الدين الإسلامي كما كان في السابق، النمط الشعبي والعقيدة ذات الأهمية الحاسمة في نطاق المصالح للقوى الاجتماعية المختلفة بدون أن تستطيع في هذا المجال، سواء في الهيئة أو في طبيعة المهام العمل، التي كانت عليه حركة المذاهب، أو التنظيمات الإسلامية التي كانت قد برزت إلى الوجود في أواسط القرن التاسع عشر وهذه لها أهمية خاصة بالنسبة إلى الإشكالية التي نبحثها.

وتحت شروط نشوء وتكون علاقات الإنتاج الرأسمالية في معظم الأقطار العربية، التي كانت وبمقاييس قوية، متأثرة بشدة بالرأسمالية الأوروبية، وقد أصابها التثوه من جراء هذا التأثير بالإضافة إلى تفاعلات التوسع الاستعماري في شمال أفريقيا والشرق الأوسط، وكذلك من خلال صلات وثيقة مع حركة التنوير العربية البورجوازية التي بدأت في مصر وفي المغرب العربي، بدأت اتجاهات أيديولوجية جديدة بالتشكل والتكون: عملية التحديث الإسلامية.

وفي هذا التيار الذي يتشابه في بعض الوجوه مع حركة الإصلاح المسيحية في أوروبا وقد عوملت كما جرى التنويه من أجل أن تكون الأساس الأيديولوجي لكل ما صدر عن الإسلام في مرحلة الازدهار والسيادة والتي تعد تاريخياً قوى تقدمية من البورجوازية العربية الفتية ومن خلاله خلقت " دينها الخاص الذي يناسبها". (5)، إسلامياً طور علاقات إنتاج جديدة تتلاءم مع المصالح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية للطبقات الجديدة، وفي نفس الوقت عبر المحدثون الإسلاميون الذين كان بروزهم لا ينفصل عن اسم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده بوصفهما من أهم أشكال التعبير الأيديولوجية للحركة التحررية العربية المعادية للاستعمار، وقد أصبحا أحد معالم التقاليد التقدمية وتشبه فعاليتها ما قام به (مارتن لوثر). وقد تأثر بذلك علماء دين وثوريون على حد سواء في مشاركاتهم الحماسية في أول نهوض وطني للشعب المصري بقيادة أحمد عرابي ضد الاستعمار الذي مثل اتجاه التحديث في الإسلام.

والمحدثون الإسلاميون في القرن العشرين، بذلوا أيضاً جهودهم في تعميق العملية التي كان يقودها محمد عبده في فتح باب الاجتهاد، وكان ذلك يعني فتح الأبواب أمام تفسير واسع لمصادر الدين الإسلامي من أجل التغلب على التقاليد وأبعادها. وبذلك قاموا بدور حاسم بوضع نمط من التفكير الجديد في الإسلام الذي كان يشوبه الجمود، وتحطيم جمود إيديولوجية إقطاعية لم تتغير منذ القرون الوسطى، وجعلها ملائمة للعصر، وجعلها كعامل تعبئة أيضاً في خدمة النضال الوطني التحرري.

هكذا إذن، كانت توجهات حركة التحديث الإسلامي في القرن العشرين والتي يعد محمد رشيد رضا من ممثليها البارزين والذي أسس في مصر السلفية الحديثة، وأيضاً عبد الحميد باديس، مؤسس رابطة علماء الجزائر الذي له آراء محترمة ومقبولة حتى الآن، ومن مراكش، عبدة شعيب الدوكالي. وكانت مهمتهم تكمن في تحرير الإسلام من الخرافات والجهل والتعصب، ووقوف الإسلام كعصبة واحدة موحدة، بل وكسلاح في النضال التحرري الوطني والقومي من خلال إبراز التقاليد التقدمية التاريخية، وليس أخيراً، التأكيد على اللغة العربية كهوية مميزة للأمة العربية التي أصابها الاهتزاز من خلال القوى الغربية وإعادة الوعي والثقة إلى الشعوب العربية.

ولكن هذه مساعي لتحديث الدروس ومحتوى التعليم وانعكاساتها لمركز لحركة التحرر الوطني فشلت، وبشكل ملموس في محاولات الإصلاح حيال المراكز الدينية الكلاسيكية، الواسعة النفوذ، في القاهرة (الأزهر) والزيتونة (تونس) والقرويين (فاس / المغرب)، ويبدو بوضوح أكبر في الأزهر. وعندما يتذكر المرء الدور الهام والفعال للنشاطات السياسية للشخصيات الروحية والطلبة في الثورة المصرية عام 1919، وذلك يطرح نفسه أيضاً في نضال المحدثين في شمال أفريقيا ضد الرجعية والغموض والتعصب في بعض الاتجاهات الإسلامية والتي كانت تقف إلى جانب الاستعمار الفرنسي في قمعه لحركة التحرر الوطنية. وأخيراً الجهود التي بذلت في مصر بصفة خاصة للتغلب في مجال قواعد التعامل والحقوق، فوجد انعكاسه في مقترحات إصلاح ديمقراطية - بورجوازية من شأنها إصلاح مكانة المرأة المسلمة واعتبارها في الحياة الاجتماعية، وذلك بصورة مترابطة مع أعمال قاسم أمين لا سيما في الحركة النسوية المصرية المهمة التي كانت ملتفة حول هدى شعراوي.

وهذه الأمثلة القليلة توضح الدور المهم الذي لعبته حركة التحديث الإسلامية في فعاليات وتعبئة النضال التحرري الوطني للشعوب العربية. ومن بين هذه الفعاليات برز قادة لعبوا أدوار تاريخية مهمة في حركة التحرر العربية مثل: علال الفاسي، شكيب أرسلان، الثعالبي، فرحات عباس، لطفي السيد، سعد زغلول، وآخرون كثيرون.

وفي وصف وتميز ظاهرة حركة التحديث الإسلامية، لا ينبغي تجاهل التناقضات النظرية الداخلية وكذلك السياسية العملية، تلك التناقضات التي (بدون شك هي نتيجة لحاجات ومستلزمات اجتماعية) التي أدت مرغمة إلى أن تلعب دوراً تقديمياً لا جدال فيه في النضال المعادي للاستعمار وجعلت من أي أمر آخر حيال ذلك نسبياً. وقد كان المحدثون الإسلاميون الطلائعيون، جمال الدين الأفغاني وأبرزهم: جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، قد برهنوا في أعمالهم الدينية أو السياسية على أن فاعلية التناقضات هذه على أساس النظرية البورجوازية، وهكذا فإن أعمال الأفغاني هي أيضاً تعد في خدمة الحركة القومية العربية بدون شك. وفي تأسيس فكرة الجامعة الإسلامية (التي كانت أساساً توجهات معادية للاستعمار) والتي أصبحت فيما بعد سلاحاً بيد آخر سلاطين العثمانيين

وقادة تركيا الفتاة، فتحوّلت إلى سلاح خطر ضد الحركة القومية العربية، وحتى اليوم تعد هذه ذخيرة وترسانة روحية وسياسية بيد الرجعية الإسلامية. وعلى المرء أن لا يتجاهل بأن الأفغاني كان يوجه نضاله ضد الحركة الاجتماعية للبورجوازية الصغيرة في الأقطار العربية، كما بادر إلى استخدام مصطلح (الاشتراكية الإسلامية) ووضع أسسها النظرية، وما زال حتى اليوم خصوم التقدم الاجتماعي يستخدمونها كقاعدة أيديولوجية.

وختاماً فإن الحقيقة التي لا يمكن الصمت عنها، هي أن محمد عبده لم يكن مؤيداً للنضال الثوري للجماهير، أو للحركة الوطنية المصرية في تعيّناتها وراء أحمد عرابي ومصطفى كامل، كما أنه كان صديقاً مقرباً من القنصل البريطاني العام في مصر اللورد كرومر.

ومن الواضح الجلي، هو حدود حركة التحديث الإسلامية التي استخدمت كعنصر تعبئة في النضال المعادي للاستعمار مقابل فعاليات محمد رشيد رضا، والتي بواسطتها تطور هذا التيار الأيديولوجي إلى ذروته، وبنفس الوقت إلى مرحلة تحجره والانحدار إلى تعصب جديد، وبه ومن خلاله كان أبرز وأهم تلاميذ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، قد مضوا في عملية يمكن للمرء أن يقارنها بالظاهرة التي حدثت قبل بضعة قرون، عندما كان اللاهوتي الأشعري والغزالي والمعتزلة والصوفية قد وضعت في قائمة الأفكار المحافظة، وبذلك فإن هذه التيارات غير المتعصبة سلبت مئات من السنوات قوتها الثورية.

وإذا جاز لنا اعتبار الغزالي مؤسساً لمدرسة التعصب الإقطاعية في العصور الوسطى، فإننا سنعتبر محمد رشيد رضا "غزالي من نوع جديد" وظاهرة تاريخية تقدمية وعنصرأ ثورياً في الأفكار المعادية للاستعمار والتعامل في الحياة مع الإسلام وتجميد المدرسة المتعصبة. وهو الذي خلق "الاقتصاد الأخلاقي الإسلامي" وصاغ منها تلك الاشتراكية الديماغوجية عن طريق ثالث بين الرأسمالية والاشتراكية، وعن إمكانية توافق طبقي سلمي من خلال الضرائب الاجتماعية والزكاة التي تظهر اليوم في الأقطار العربية تعبر في الأساس عن معتقدات / الأيديولوجيات البورجوازية المحافظة وصغار البورجوازيين، وكحجج ضد الأفكار الاشتراكية والحركات التقدمية في شمال أفريقيا والشرق الأوسط العاملة في الميدان، ونعد سعي العناصر الرأسمالية وكأنها مسألة مبررة واستحقاقات دينية.

ومرة أخرى تجلت شدة هذه الاتجاهات المحافظة الجديدة لرضا في مواقفه حيال قضية على عبد الرازق. ففي عام 1925 كان علي عبد الرازق وهو الأخ الوحيد لشيخ الأزهر مصطفى عبد الرازق، قد تخرج من الأزهر، وبتأثير شديد لسياسة فصل الدين عن الدولة في تركيا الحديثة التي كان مصطفى كمال أتاتورك يمارسها، وقد أثار نشره لكتابه "الإسلام وأصول الحكم" الاضطراب في أوساط الرجعية الدينية، وبالصلة والتواصل مع أفضل التقاليد في استنفهام والاستيضاح العربي، طالب علي عبد الرازق بتعميق متواصل لعملية التحديث الإسلامية، والذي استطاع من خلال دراسة قام بها في جامعة أكسفورد، أن يكون على تماس مع أفكار هوبس Hobbs ولوقا Locke التي تضم أفكاراً عن فصل الدين عن الدولة، وبحس رأيه، فإن مؤسسة الخلافة تعني ألحاق التهمة بالدين الإسلامي والمسلمين وما يمارس بأسم الإسلام من طغيان ثيوقراطي يتناقض مع النوايا الحقيقية للنبي محمد وتعاليمه. وقد كتب قائلاً "الدين الإسلامي إلي يدين به المسلمون لا علاقة له بأي خليفة، وكذلك بالسلطة والسلطان وكذلك مع الاجتهاد، وأن الخلافة لا تعد من المؤسسات الدينية وكذلك وظيفة القاضي. والوظائف الحكومية الأخرى والمواقع في

الدولة المركزية" وقد أكد مفكر عقلاني مسؤوليات التنوير العربي، بأن " ليس في الدين الإسلامي ما يمنع من التنافس مع الأمم الأخرى في المجالات الاجتماعية والعلمية وفي إلغاء أي نظام قديم يذلهم ويخضعهم، ووضع أسس الدولة والنظام الحكومي وفق أفضل وأحدث ما توصل إليه الفهم البشري وما أشارت إليه تجارب الشعوب كأفضل ما يمكن من مبادئ مهام الدولة والعمل بها". (6)

وعملياً، فإنه بذلك كان قد وجه التحية إلي القرار الذي اتخذته الاجتماع الوطني الكبير (البرلمان) في الحل الرسمي للخلافة، وفي نفس الوقت، وقف ضد الانشقاق في الحركة المعادية للاستعمار، وعززت من جهوده فيما يخص الخلافة. وكان يقف هذا الموقف محمد وشوكت علي، محمد رشيد رضا، ورجال الدين المشهورون الذين ينتمون إلى الأزهر، والذين كانوا قد ساهموا في مؤتمر الخلافة في أيار/ مايو - 1926 في القاهرة، وفي تموز/ يوليو - 1926 في مكة، وكذلك في إيجاد مؤسسات إسلامية دائمية (مؤتمر العالم الإسلامي) الذي ما زال يحاول حتى اليوم يسعى لخلق الإمبراطورية الإسلامية العظمى. (7)

وهكذا لم يكن مثيراً للدهشة بأن مجلة رضا (المنار) ذات النفوذ، والتي كانت تدعم (وكذلك كان البلاط) حزب الاتحاد. وقاد أصحابها معارضة شديدة ضد علي عبد الرازق الذي كان ومن خلال إدانات نشرتها مجلة المنار لكتابه، أدت إلى منع أول كتاب من قبل علماء الأزهر (كما أدين هو شخصياً وصدر تحريم تقليده أي وظيفة عامة)، وبذلك كان رضا من أشد خصوم علي عبد الرازق وكذلك مفتي مصر محمد بخيت. ووصفوا هذا المسلم الليبرالي بأنه عدو للإسلام، وهو الذي أشتهر بسبب مقالته "الدين، الإلحاد، الاشتراكية" و "الاشتراكية، البلشفية، الدين" التي سببت تعاطفاً مع الاشتراكية. وكان رضا متفقاً مع قرار الأزهر بقطع الصلة مع "مثير المشاكل" علي عبد الرازق، ووصف مقاصده بأنها تنطوي على الإلحاد، وتتهمه الرجعية بديماغوجية "بيلشفا الإسلام". هذه التوجهات من محمد رشيد رضا الذي لم يخف إعجابه بالنظام الوهابي الإقطاعي السعودي، كما بلغت التوجهات المحافظة الجديدة أوجها بتأسيس جمعية الأخوان المسلمين.

تأسست جمعية الأخوان المسلمين في سنوات 1928/ 1929 في ظروف الأزمة الاقتصادية العالمية التي كانت مؤثرة على الأقطار العربية أيضاً كما في مصر. ففي الوقت الذي كانت فيه أقسام من البورجوازية المحلية تبدي الاستعداد من أجل التفاهم والوفاق مع الإمبريالية البريطانية عن طريق أحزابها، وهنا فإن البورجوازية الوطنية وفي حالات كثيرة كادت أن تتنازل عن قوتها الثورية. كما أنها أظهرت فيما يخص قضايا الملكية المختلفة تأثراً بأيديولوجية الأخوان المسلمين، موقفاً متعصباً دينياً وقومياً، كما أنهم عكسوا احتجاجاً عفويًا وآمالاً بالاستقلال وأمنيات غير واضحة المعالم في ظروف الاضطهاد الاستعماري من خلال المضطهدين من القوى المحلية الذين كانوا يلحقون الأذى بالفلاحين الفقراء والحرفيين وصغار التجار والمتقنين من البورجوازية الوطنية.

وكان حسن البنا هو المؤسس والمرشد الأول لهذه المنظمة الدقيقة التنظيمات ذات المراتب المتدرجة. والبنا هو ابن أحد مصلحي الساعات في منطقة الدلتا المصرية، وكان يعمل معلماً في مدرسة ابتدائية في الإسماعيلية. وقد مثل محمد رشيد رضا والوهابيون المتشددون، ومن الملتزمين بالمذهب الحنبلي، الأوساط المحيطة به وبرضا وبمجلته المنار التي واصل إصدارها بعد عام 1949، وكان البنا حتى اغتياله عام 1949 القائد الديكتاتوري لهذه المنظمة الجماهيرية التي كان قد وضع لها أساسها الأيديولوجي الذي

يرتكز في النهاية على القرآن واتجاهات أخرى غير محددة بدقة ولكنها متجهة بصفة أساسية إلى خلق وتأسيس دولة إسلامية عظمى على هدى الإسلام كأيمان مشترك، وبذلك فأنها مواصلة واضحة لأفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. وفي ضرورة إقامة حكم "عادل مستبد" كضمان "لبعث الشرق" ووجدت هذه نفسها في نظرية الدولة لدى البنا الذي (كما لدى محمد رشيد رضا) دولة يكون القرآن دستوراً وهناك خليفة على رأس هذه الدولة.

وكان البنا يعتقد أن سقوط الشرق هو بسبب رجوع الناس عن التعاليم الأساسية للإسلام، وطالب بالتطبيق الشامل في كافة مناحي المجتمع وكذلك الحياة الخاصة، (القوانين الإسلامية - الشريعة) كما طالب بحل جميع الأحزاب السياسية وإلغاء كافة القوانين والأنظمة والتعليمات الليبرالية - البورجوازية، وإحلال سيطرة صارمة لمساعي الدولة الإسلامية في السيطرة على حياة البشر وعلاقاتهم وفق تعاليم الإسلام. ولما كانت اللغة العربية هي المعبرة عن التعاليم الإسلامية الأساسية، لذلك ينبغي أن يكون جزءاً أساسياً من فعاليات التعليم للدولة الإسلامية الجديدة، ومرحلة التعليم لما قبل الدراسة الابتدائية ويجب أن تكون في الجوامع.

وبديماغوجية اجتماعية، من خلال محاكاة شاملة للنموذج الفاشي لماكثة الدعاية، وتحت شعار " رفع الفوارق الطبقيّة على قاعدة الأخوة الإسلامية" وكذلك " النضال ضد النفوذ والتأثير المادي والروحي للغرب " و " النضال ضد الفساد والنزاعات الحزبية"، استطاع الأخوان المسلمون أن يحققوا وبسرعة نفوذاً وكثير من الأتباع بين جماهير الفلاحين وبين البورجوازية الصغيرة في المدن كما حاولوا أن ينالوا ويحققوا لأنفسهم مكانة بين الطبقة العاملة حيث نجحوا بتمرير بعض عناصرهم في النقابات. وفي حوالي نهاية الحرب العالمية الثانية كان عدد أعضاء الحركة قد بلغ أكثر من نصف مليون، وبما يشبه الشبكة من الفروع لحركة الأخوان المسلمين، كانت قد انتشرت في معظم أقطار المشرق العربي والسودان. ومن خلال تشكيل " الأخوات المسلمات" في مسعى للحصول على أتباع بين النساء وأيضاً من خلال وحدات " الكشافة " لنيل نفوذ بين أوساط الشبيبة. كما أسس الأخوان المسلمون المزارع، ومشاريع صناعية وأعمال الخدمات، وبذلك كانت لديهم الوسائل المالية القوية في نضالهم السياسي. وتحت شعار منظمة الجواله " للشباب الأكبر سناً من الكشافة" والتي تأسست فيها المنظمة العسكرية "الكتائب" ذات القوة الضاربة.

وليس ثمة شك بأن العداء للأجانب قد طبع بالحقد من المتشدددين دينياً و القوميين المتطرفين، وقد ضم شيئاً من عداء الأخوان المسلمين للاستعمار. وكان الأخوان المسلمون قد أقسموا على المصحف والسيف، وساهموا بفعالية في الانتفاضة العربية في فلسطين خلال أعوام 1937 - 1939 وكسبوا تعاطف الجماهير العربية معهم. وكان حسن البنا هو القائد لمثل هذه الاتجاهات المعادية للاستعمار، وبحسب المعطيات، فهو ينحدر من منطقة الإسماعيلية (حيث مركز القيادة البريطانية في قطاع السويس) وهناك تعرف على الاستعمار، وشحن بالكراهية ضد المستعمرين وسلوكهم التسلطي القائم على البطش.

ولكن قادة الأخوان أظهروا الانتهازية، حيث كانوا على استعداد لسياسات توفيقية. فقد ابدوا المبالغة في صراعهم المرير مع الوفد، ثم في تعاونهم مع الفاشية (الألمان) أو مع السلطات البريطانية بدرجة متساوية، ألحقت هذه السياسة الأضرار بحركة التحرر العربية، وكذلك في موجة من الإرهاب التي تنامت منذ الأربعينات بواسطة أعمال وفعاليات المنظمات العسكرية للأخوان المسلمين، ضد الخصوم من الداخل والخارج،

وفي العدا المعلن ضد الشيوعية، وكذلك الرجعية الاجتماعية العميقة، أضعفت جبهة النضال ضد الاستعمار. ومثل هذه الفعاليات كانت مضرّة مثل مواقفهم في الثورة المضادة ضد النظام الثوري الديمقراطي في مصر في أعوام الستينات.

وتشير هذه الملاحظات إلى كون الإسلام قوة تعبئة لا جدال فيها ولكن أيضاً إلى محدوديته في النضال المعادي للاستعمار. وحيث كلن الاتجاه الإسلامي يطرح : بأنه فقط بشروط وظروف الإسلام تكون الحركة المعادية للاستعمار والشعور العربية ممكنة، وتوفر للبورجوازية المحلية قاعدتها الفعالة.

ثانياً : القومية العربية :

كانت البورجوازية والطبقات المتوسطة الصغيرة تفتقر إلى القدرة في أن تتمكن من تحقيق وتأسيس هيمنتها وسيطرتها على مواقعها داخل حركة التحرر الوطنية والقومية نظرياً وسياسياً، تلك النظرية التي سيكون بوسعها أن تقوم بالتعبير بصورة فعالة عن مصالحها الطبقيّة وتحقيق شخصيتها في الحركة الوطنية، وإن ذلك يؤكد ما جاء في ملاحظات ماركس " باسم الحقوق العامة للمجتمع تحصل طبقة خاصة على السلطة العامة". ومن أجل " اقتحام هذا الموقع وبذلك يتم استغلال سياسي لجميع الطبقات والفئات في المجتمع لمصلحتها. وحيث لا تكفي قواها الثورية الذاتية، لذلك فإن ثورة أي شعب وتحريره طبقة خاصة في المجتمع البورجوازي يتم بصورة تدريجية حتى يشمل المجتمع بأسره. وإلى جانب ذلك ينبغي عودة كل أقلية في المجتمع لتتركز في طبقة أخرى وينبغي أن توجه الضربات ضد الفساد الداخلي، وإلى جانب ذلك ينبغي أن تكون هناك حواجز اجتماعية خاصة للجرائم المعروفة. ولذلك فإن التحرر من هذه الدوائر يبدو وكأنه التحرر الذاتي العام". (8) وربما أن عرض ماركس هذا يكون ملائماً ومصيباً في مجال آخر. ولذلك فإنه يعتمد على الطرف الذي كانت فيه حركة التحرر العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين، وهذا يثبت الحاجة إلى الأيديولوجية التي تمنح القوة التحررية بقوة إضافية مساعدة.

هذه المقننات تناسبت في مرحلة النضال ضد الاستعمار الذي كان كالمجرم المشهور الذي لا يمكن تجاهله حيال الشعوب العربية، حيث نالت الحركة القومية موقع الصدارة ومكانة أهم من الحركة التحديثية الإسلامية، أيديولوجيا للفئات الوسطى القوية، والاتجاهات التي قامت بناء على ذلك " لحظة نسبية من التطور التاريخي، سواء في خصوصيات أمة مقابل أخرى، أو تضافر وتعاون القوى الاجتماعية المقابلة ضمن الأمة الواحدة من أجل جعلها مطلقاً". (9)

وقد عرضت البورجوازية المحلية الأساس الأيديولوجي المناسب، وانطلاقاً من ذلك أصبحت في وضع يمكنها من السعي بحيوية وفاعلية نحو مصالحها وتساويها بمجموع مصالح الأمة (والسيادة الكاملة) كتأمين سيطرتها على أشكال النضال المعادي للاستعمار. وفي نفس الوقت قدمت الأفكار المتحضرة (التلاحم القومي) وبمقياس قوي كعنصر موحد ومعاً في النضال ضد الاستعمار. ومن أجل الاستقلال الوطني (كما اشرنا قبل قليل) مع تصاعد التوجهات الدينية الإسلامية وسائر (المقدسات) التقليدية الأخرى والحركات التحررية (المهدية - السنوسية) وكذلك الحركة التحديثية الإسلامية التي كانت في تلك المرحلة محصورة في المجاميع المثقفة (في حالة وجودها). إن العلاقات الاجتماعية الغير

المتطورة وبخاصة الهيكل الاجتماعي غير الناضج، والنهب الاستعماري المتزايد بحده، وكذلك ازدهار النزعات الدينية والأحتدات العرقية المؤثرة على النضال الوطني التحرري استلزم المزيد من التعميق والتجذير التي ما زال لها حتى اليوم النفوذ على التيارات الأيديولوجية في الأقطار العربية.

ويلاحظ بأنه على رغم "حلول أنماط العلاقات الرأسمالية ونماذجها الأولى، فإن ذلك كان يقابله تقلص وانتعاش على مستوى أنصار الملكية في الرجعية الثيوقراطية على الأرض" أو "نوعاً من أعلب البورجوازية الوطنية، أفرز ذلك في البدء الأفكار المازنية - الليبرالية كمثال يحتذي به والتي تنافست مع الأفكار الديمقراطية التي أعقبت الثورة الروسية 1905". (10)

حلت جميع هذه الظواهر والأفكار في البلدان العربية في مرحلة التحول إلى القرن العشرين، وقد عبر ذلك عن نفسه في فاعلية الرواد الطلائعيين القوميين العرب (التي كانت متأثرة بالحركة القومية الإيطالية) (البعث) Risorgimento بتأثير اليهودي المصري يعقوب صنوع (في مجال التأثير بالأفكار الليبرالية، وقد ورد ذلك تفصيلاً في مكان آخر من الجزء الثالث - المترجم)، وأفكار السوري المسلم الكواكبي، وكذلك السوري المسيحي أديب إسحاق، والمصري المسلم عبد الله النديم، والمصري المدافع عن حقوق المرأة ذو الأصل الكردي قاسم أمين. وليس أخيراً الوطني المصري مصطفى كامل، فهؤلاء وغيرهم كثيرون من المنظمات القومية السرية التي كانت قد خاضت النضال قبل عام 1918 ضد الطغيان العثماني وقدمت تضحيات عالية تخضبت بالدماء، فقد كانوا يمثلون في أفكارهم وفي تعاملهم لأفكار القومية العربية يمثلون في الواقع قوة تحررية تشير إلى كونها أو بوصفها " شكلاً غير متطور من الوعي الجماهيري المعادي للإمبريالية". (11)

وفي المرحلة التي يدور البحث فيها عن حركة التحرر الوطنية، تطورت القومية إلى إيديولوجية رئيسية كشكل معبر لنضال الجماهير العربية ضد الإمبريالية وأيضاً إلى نظرية صالحة عموماً وإلى أساس لهذا النضال بمشاركة مهمة وأساسية من البورجوازية الوطنية والبورجوازية الصغيرة التي دخلت ميادين النضال.

وهذه العملية كانت مرتبطة (متلازمة) مع تأسيس العديد من الأحزاب البورجوازية الصغيرة القومية في أغلب الأقطار العربية، وكانت مطالبهم تتمثل في الاستقلال الوطني، وفي الإصلاح الداخلي، قد وجدت صداها الكبير لدى الفئات العريضة للشغيلة التي عبرت عن ذلك في انتفاضات مسلحة وتظاهرات واسعة والقيام بأضرابات، وبذلك فأنها عبرت بوضوح (الحركات القومية) عن كونها أقوى الحركات التحررية المعادية للاستعمار، وفي نفس الوقت أنجزت وعلى خطوات منتظمة الموقف العقائدي للحركة القومية العربية كما تظهر لنا المحاولات النظرية لجعل ذلك مجسداً أمام الأعين.

وقد طرحت هذه في أماكن أخرى العديد من الأمثلة، فمن أجل وضع المناهج السياسية للحركة القومية بصورة مباشرة في حركة نضال الجماهير المعادية للاستعمار، فقد استلزم ذلك في الصفحات التالية أيلاء أهمية خاصة لقضايا النضال المهمة للحركة التحررية القومية والتي تبلورت من خلال المطارحات الأيديولوجية للقوميين العرب، وفي الوسط الذي كان يجري منذ أواسط الثلاثينات حيث يشتد مباشرة في مجال السياسة العملية للصراع بين أواسط القوميين العرب والذي كان جوهره حول عقدتين من القضايا

:

الأولى: في المناقشات حول العوامل الأساسية للحركة القومية.
الثانية: كانت حول استخدام الأفكار القومية وربطها بالخطوات الأولى من أجل تحقيق الوحدة العربية.

وفي ملاحظة للمناقشات حول الأجزاء المكونة للحركة القومية العربية، التي ساهم فيها إلى جانب المنظرين القوميين، الشيوعيين العرب أيضاً، وبذلك فقد يبدو للوهلة الأولى أنها لا تضم إلا القليل من المواد السياسية البالغة الأهمية.

وكانت هناك وحدة في الرأي بين المفكرين القوميين حول اللغة العربية، في أن تنال المكانة الأولى، فقد مثلت اللغة العربية (ضمير الأمة العربية) وهي تعد عربياً من كانت "العربية، لغته الوطنية، بها يفكر وبها يعبر عن آرائه وأفكاره وبصرف النظر عن الانحدار العرقي لوالديه" وبصورة مماثلة كان هناك اتفاق يتوافر عند تقييم التقاليد التاريخية للشعوب العربية" بما في ذلك الثقافية" كعوامل أساسية للقومية العربية. وعند تقرير ما يسمى بالمصالح المشتركة، التي اسماها السوري قسطنطين زريق، وهو قومي مسيحي أرثوذكسي، له تأثير كبير على القراء الليبراليين، واللبناني عبد الله العلايلي، مثلت عناصر جوهرية للقومية وأشعلت المساجلات الحامية.

وكانت المجادلات ذات نوعية خاصة منها ما يختص بالمصالح المشتركة أو "حمية المصالح" التي كانت قد طرحت من قبل ساطع الحصري الذي كان مفكراً رائعاً ومنظراً للقومية العربية، وكذلك من خلال مساهمة الماركسي اللبناني ريف خوري الذي نشر عام 1941 كتاباً بعنوان "معالم الوعي القومي"، ففي هذا الكتاب، وقف ضد تلك الاتجاهات الرائجة في تلك المرحلة، وكذلك وفي المراحل اللاحقة، من رومانسية غير معقولة في القومية تلك التي كان قد صاغها زريق في كتابه "الوعي القومي" عام 1938. وبحجج متينة جعلته ينال التقدير في صفوف القوميين، أخضع فيها أطروحات زريق "المهمة العربية الخاصة" إلى النقد المقنع، والخوري الذي أنزل الرومانسية القومية إلى الأرض من عليائها، ثم أسدى خدمة أكبر بأطروحته "الحاجات الخاصة" إلى قضية الاستقلال والتقدم الاجتماعي التي تناضل من أجلها الجماهير وربطها ببعضها، فبالنسبة له كان ذلك "الهدف الأخير للفكرة القومية الحقيقية وأمضى قوة، تمنح طاقة إنتاج للأمة من أجل تحسين الشروط المادية والثقافية وتوسيع عملية التمدن والتحضر وإزالة كافة الحواجز عن طريق انطلاق الأمة والتي تعيق نمو عبقريتها" وبذلك نزع عن الحركة القومية العربية ثياب الصوفية، ووضع بدلاً عنها الأساس المادي الموضوعي.

وهذا الأسلوب كان ملزماً، وقد أستند خوري على أطروحة زريق التي تتحدث عن "اجتماع المصالح" وطرح بصورة جوهرية مفهوم "عندما تكون مصالح أطراف وأقسام أي أمة متصادمة، فإن هذه الأمة ستكف عن الوقوف" كما أنه أكد بالمقابل، بأن بوسع المرء مناقشة المصالح التي يشترك فيها أغلبية الأمة في مرحلة محددة من مراحل تطور الأمة. وفي نفس الوقت فقد أوضح الخوري بأن أكثرية الأمة بالنسبة إليه كانت: "إن الأمر يدور عن قوى تنتمي إلى عملية الإنتاج، تلك القوى التي ينبغي دعمها بالإضافة إلى أنهم يشكلون مادة البناء، فأنهم أيضاً يمثلون الولادة الجديدة للأمة".

وبموجب الذي توصل إليه الخوري، فقد أصبح واضحاً، بأن النقد الذي تصاعد مبكراً وبسرعة في الأقطار العربية التي تعرضت للخطر، وأتضح لديها بأن من خلال الحركة

القومية التي تقودها البورجوازية، تنطوي على ديماغوجية شعار "اجتماع المصالح". وإن الجهود كانت في مجال أماطة اللثام عن الظاهرة المؤقتة المتمثلة بـ"بروز" السلام الطبقي (الدائمي) من بين الظروف المادية للنضال المعادي للاستعمار الذي تخوضه الشعوب العربية، والتفاعلات الضرورية لمختلف الطبقات والفئات من أجل الاستقلال الوطني ونيل الحريات الديمقراطية بوصفها حقوق مواطنة.

وقد وجد الخوري ذلك ضرورياً في تأكيد على الجماعية في النضال ضد المضطهدين الأجانب، وإبراز حقوق ومصالح هؤلاء الذين منحوا قواهم لقضايا فكرة التحرر القومي من خلال الفعاليات الجماهيرية. إذ أن: القومية العربية تحتاج في سعيها للتحرر القومي من خلال الفعاليات الجماهيرية، غداً أن "القومية العربية تحتاج في سعيها إلى التحرر، إلى طليعة مناضلة، التي تنظم نفسها وتعيى قواها من خلال النضال والعمل، وهي تضم نوعية أخلاقية ومعنوية عالية، كما أنها تمتلك الحماس وروح التضحية ويتألف أعضاؤها وقادتها من الطبقات الشعبية (ليس فقط من المثقفين) ولها رؤية فلسفية للطبيعة وإلى المجتمع والتاريخ، والتي أساسها في الدراسات العلمية التي في واقعها تطور وانقلاب في رؤية الأشياء". (12)

وفي المناقشات الفائقة الأهمية حول مسألة مواصلة تطور نظرية وممارسة الحركة القومية العربية في الأيديولوجية القومية. وفي هذا النزاع وفي هجمات شديدة ضد المحاولات التي كانت تقوم بها على الأغلب قوى إقطاعية من أجل الإبقاء على المثاليات الإسلامية الصرفة، كان قد غدا واضحاً، بأن لم يكن الدين، سواء لدى القوميين المسلمين، أو القوميين المسيحيين (وهذه بصفة خاصة)، يحتل عند تقرير الأساس النظري للحركة القومية موقعاً متقدماً، بل وأكثر من ذلك، فقد أنذروا وحذروا "وكان زريق قد أنظم إلى الكتلة الوطنية، وكذلك أدمون رباط، والعراقي عبد الرحمن البزاز" وحذروا صراحة من طغيان العامل الإسلامي في الحركة القومية، بل وقد أعتبر باحترام أن: الدين الإسلامي جزء لا يتجزأ من الإرث القومي للشعوب العربية، وقد حدث ذلك بالدرجة الأولى تحت تأثير توافق وانسجام قواعدها ومبادئها الأساسية الرقة والأخلاقية العامة مع الأديان الأخرى في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وبالتحديد المسيحية (*). وهذه الرؤية الليبرالية لمعظم القوميين التي تنطوي جوهرياً على توجهات دنيوية في إيديولوجيتها قد عبرت عن نفسها على سبيل المثال في مصر تحت شعار "الدين لله والوطن للجميع". هذه الرؤية منحت الفرصة وإمكانية التغلب على الحواجز والموانع وفي توجيه الخطاب إلى جماعات السكان غير المسلحة، وجرها إلى النضال ضد الاستعمار تحت راية القومية العربية.

وقد بقيت لنا ملاحظة، بأن مواقف روحية كهذه، تضم فيما تضم، الطبقات المعتدلة التي كانت تتحول إلى الإسلام الحديث، وكان ذلك واضحاً في قناعاتها الاجتماعية والسياسية، والتي صاغها محمد رشيد رضا في "الاقتصاد الأخلاقي" والانخراط في المشروع القومي، وبذلك فإن المساجلة والمناظرة التي استغرقت طويلاً حول العلاقة بين الإسلام والقومية حسمت تدريجياً لصالح القومية.

والمجموعة الثانية المهمة المثيرة في المجادلات النظرية وفي الصراعات السياسية العملية بين القوميين العرب في أعوام الثلاثينات والأربعينات التي أحرزت الانتصار التدريجي على ما يسمى بـ(القطرية) والتحقق التدريجي للأفكار القومية والارتباط بشكل وثيق بالمحاولات الأولى لأحياء فكرة الوحدة العربية.

بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية كان هناك في معظم الأقطار العربية شكل مما يسمى (القومية القطرية، أو المحلية) تسمى في الأدب الوطني (الوطنية) وهذا التطور كانت له أسبابه الجوهرية الكامنة، فمن خلال النضال التحرري الوطني دخلت القوى البورجوازية كقوى مسيطرة في هذه البلدان بوجه المعطيات الاقتصادية والسياسية وقد بدا لها هدف واقعي وظاهري من خلال نيلها للاستقلال الوطني من أجل وجودها المباشر ومجالات تأثيرها أدى بسرعة وفاعلية إلى تلك الشروط التي سمحت " بالنهوض كطبقة رأسمالية اعتيادية في بلدانها" (13) وهنا لم يظهر أغلبية القوميين العرب في هذا الوقت، المزيد من الاهتمام إلى رؤى قومية عربية صرفة، أو أنها أزاحت على الأقل مثاليات المستقبل البعيدة.

وهكذا فقد ساد في أعوام العشرينات في المغرب العربي والشرق الأوسط، ما يسمى بالقطرية (المراكشية) و(التونسية) و(السورية) و (المصرية) وفي نفس الوقت تعميق للشعار الذي كان مصطفى كامل قد طرحه " مصر للمصريين" وجد تعبيره بصورة رئيسية عند أفكار وممارسة قائد حزب الوفد سعد زغلول، والكاتب محمد حسين هيكل، والقومي الليبرالي لطفي السيد، الذين كانوا خصوم الفكرة الداعية إلى الحركة الإسلامية. وقد لاقت هذه الفكرة (القومية المحلية) تطوراً منعزلاً من خلال الكاتب الكبير المحدث للأدب العربي طه حسين، والقبطي سلامة موسى في الدعاية لفكرة المصرية - الفرعونية والتي ترجع (الأحداث) العربية - الإسلامية العنصر الأساسي للقومية العربية لصالح فكرة "أفكار البحر المتوسط) وقد اتخذت (القومية المصرية) شكلاً ضخماً في عام 1933 في الحزب البورجوازي الفاشي الذي أسسه محمد حسين (مصر الفتاة) الذي كان يتشابه مع حركة الإخوان المسلمين في فعالياته الإرهابية.

واتجاهات مشابهة كانت هناك أيضاً في لبنان وسورية، وعلى أساس ما قام المسيحي المثقف شارل قرم وميشيل شيحا وسعيد عقل الذين أسسوا الحركة الفينيقية التي لاقت الدعم من السياسي اللبناني الموالي للفرنسيين أميل أدّه قائد الكتلة الوطنية التي شكلت منظمة لبنانية متطرفة، وتمثلت إحدى منجزاتها بتأسيس حزب الكتائب الذي أسسه المسيحي بيبير الجميل عام 1936 وكان هدفها الأساسي هو التصدي لمهمة حماية المصالح السياسية والاقتصادية للبورجوازية المارونية.

والآن لم يعد هناك شك، بأن سلسلة من (القوميات) (المحلية) أو (القطرية) كانت قد نشأت في بعض الأقطار، وبعضها كان قوياً. وهنا نذكر فقط الأحزاب : حزب الحركة الوطنية يرأسه الوزاني، وحزب الإصلاح الوطني بقيادة عبد الخالق تورييس، والحزب الوطني لتحقيق المطالب يرأسه الفاسي واليزيدي وبلفريج، وحزب فيدرالية المسلمين برئاسة عباس فرحات، ونجمة شمال أفريقيًا بقيادة مصالي الحاج في الجزائر، والحزب الدستوري الجديد يرأسه الحبيب بورقيبة في تونس، والوفد المصري برئاسة سعد زغلول، وحزب الشعب السوري برئاسة الشابندر، وحزب الأخاء الوطني برئاسة ياسين الهاشمي في العراق.

ولا يمكن تجاهل الاختلاف في وجهات النظر، التي يمكن وصفها بكونها حقيقية وعميقة، والصراعات الحادة بين الشخصيات القيادية، وبين أنصار هذا الحزب أو ذاك. وبادئ ذي بدء فإن الأحزاب كانت ملتزمة في أهدافها (القطرية والمحلية) وكانت هدامة ومخربة في بعض الأحيان، لأن فعالياتها كانت انشاقية وتتبع في بعض الأحيان تكتيكات معينة في

المصالح المتناقضة بين القوى الإمبريالية في الأقطار العربية والتي ليس نادراً ما أدت إلى الأضرار بأطراف أخرى في حركة التحرر العربية والفئات الصغيرة بين المواطنين. وقد كانت نسبية مساهمتها في النضال واضحة من أجل إحراز الهيمنة السياسية والاقتصادية في شمال أفريقيا والشرق الأوسط. وكان ذلك يشير بوضوح إلى الإخلال بأهمية وضرورة توحيد الجبهة للنضال ضد الاستعمار، بل أنها يسرت بشكل مباشر أو غير مباشر للسياسة الإمبريالية المشهورة فرق تسد *Divide et impera* وفي هذه الظروف، بدأت في حوالي أوسط الثلاثينات عملية تحقق متزايدة لاتجاه في المجال النظري والعملية للقوميين العرب، يقيم بصفة عامة كفكرة عربية خالصة (وصفت عادة بالقوموية) وصل ما يهدف إليه ويتمناه هذا التيار البورجوازي الصغير وكذلك بعض القوى الإقطاعية التي أنظمت إلى هذا التيار في الأقطار العربية، تهدف إلى تحقيق الدولة العربية الموحدة سياسياً، واقتصادياً، وثقافياً.

إن أتباع الفكرة القومية كانوا ماضين إلى جانب ذلك من أجل التغلب على ما أعتبر من قبلهم بالقطرية (الإقليمية) والتي من خلالها تضع الأمة العربية حداً لنتائج قرون طويلة من الاضطهاد الأجنبي وأنها تقاسي الآن أشد الآلام والتقسيم من خلال السياسة الاستعمارية لبريطانيا وفرنسا وإيطاليا والاستغلال والسيطرة حيال واقع يعبر عن الانقسام للشعب العربي.

وأحدى أهم النظريات للقومية العربية التي كانت متأثرة بأراء فيخته *Fichte* وهردر *Herder* وأرنت *Arndt* ، كانت تلك التي تقدم بها السوري ساطع الحصري. ويمكن ملاحظة ذلك في كلماته التالية: "إن الفروق والخلافات التي يمكن ملاحظتها اليوم بين الدول العربية سواء من زاوية اختلاف الإدارة أو التشريع، وفي التأسيسات الاقتصادية، وكذلك أيضاً في توجهاتها السياسية فهي جميعاً الإرث الذي تسلموه من الاحتلال. وهي وليدة الإمبريالية". وقد لاحظ أكثر من ذلك بقوله "إن العرب هم أمة واحدة: المصري، العراقي، المغاربية، هم شعب واحد وفرع من الأمة الواحدة، وهي الأمة العربية". (14) والنضال من أجل الوحدة العربية، ومن أجل ولادة جديدة (بعث) للأمة العربية، كما كتب مكرم عبيد المصري القبطي وأحد ممثلي الفكرة القومية العربية في مصر قائلاً "إن هدف إقامة الجبهة ضد الإمبريالية هو الدفاع عن القومية، تأمين تطور مستوى الحياة، وتطور الموارد الاقتصادية، وتصدير المنتج الوطني، وتكثيف المصالح المتبادلة والتنسيق في العلاقات". (15)

وبادئ ذي بدء عندما يشير المرء إلى نضال الشعوب العربية من أجل حقوقها التاريخية، وعندما تكون الأهداف غير واضحة فإن ذلك يثير المنازعات بل وأكثر من ذلك، إذ كثيراً ما طرحت حقوق عائلات في السيطرة، مصالح سياسية واقتصادية متناقضة لقادة وشخصيات، بورجوازية وإقطاعية، أضعفت الفكرة القومية وجعلتها تعاني من التناقضات، وهكذا فإن الاتجاهات المعادية للاستعمار حتى في هذا التيار (القومي) كانت ظاهرة وملحوظة: فهم انتشلوا بلا ريب قوى حقيقية وكسبوا إلى جانبهم، مساهمة في تنسيق الفعاليات الجماهيرية المعادية للاستعمار في بعض الأقطار العربية وفي ذلك تعزيز وزيادة للقوة الضاربة في جبهة النضال ضد الإمبريالية.

ولك يكن هناك شك، بأن تنسيقاً في نضال الشعوب العربية المعادي للاستعمار، وبالذات في هذا الوقت، في عشية الحرب العالمية الثانية، أضافت الأهمية ووفرت شروطاً ملائمة نسبياً، بل أن بعض فصائل في حركة التحرر العربية، ومن خلال نضالها وتضحياتها كانت في السنوات الماضية قد تمكنت من انتزاع بعض التنازلات من الإنكليز

والفرنسيين، ولكن ذلك لم يكن ليخدع أحداً، بأن الإمبريالية ماضية بلا هوادة في تنفيذ سياستها القمعية الاضطهادية ولا سيما ضد شعب فلسطين، وعدا ذلك، كان هناك خطر الفاشية قد ابتدأ يتنامى بالنسبة للشعوب العربية، ومن جهة أخرى كانت قد ظهرت استعدادات ملموسة للتضامن العربي الذي يستحق التطوير. وهنا فإن حالة دعم القوميين التونسيين لقبائل الريف(مراكش) حيث كانت منذ عام 1937 لقاءات تنسيق بين القوميين المراكشيين والجزائريين والتونسيين. كما كان ما يقرب من الإجماع لكافة فصائل حركة التحرر العربية من أعداء التضامن لنضال الشعب الفلسطيني وكذلك في سلسلة من الاتفاقات بين العديد من أقطار المشرق العربي يمكن اعتبارها خطوات على طريق التقارب السياسي والاقتصادي والثقافي.

وهكذا نشأ في هذه المرحلة لحركة التحرر العربية مقدمات مناسبة لتحقيق الأفكار القومية المثالية أكثر مما كانت عليه في مطلع القرن، تلك التي نجحت في أن تحقق انتشارا وشعبية لها. وكان السوري المسيحي نجيب عزوري (الذي أسس في باريس عام 1904، الجامعة العربية Ligue del la Patrie Arab) قد عبر في كتابه (يقظة الوطن العربي في آسيا) عن تطلعاته لدولة عربية مستقلة عن الدولة العثمانية(1905) التي تشمل مناطق لبنان، سوريا، فلسطين، العراق. وتصورات مماثلة كانت لدى المسلم السوري الكواكبي الذي كان ما يزال يعتبر أن الإسلام عنصر التحام قوي، لذلك فإنه شمل في مشروعه الوحدوي شبه الجزيرة العربية أيضا.

وفي أعوام الثلاثينات، بدأ العديد من البورجوازيين القوميين العرب على هدى هذه الأفكار القومية، التي تضم توجهات واضحة للعداء والاصطدام مع الاستعمار وبهدف إقامة الدولة العربية الواحدة، بدأت النضال ضد الاتجاه الديني الصرف، وغلاة الإقليمية وتوجهاتهم في صفوف حركة التحرر العربية.

وفي مقدمة الجهود الجدية من هذا النوع كان في المؤتمر العربي المنعقد في القدس عام 1931، وهذا الاجتماع الذي حضره قوميون بورجوازيون من مراكش، الجزائر، تونس، ليبيا، مصر، سورية، فلسطين، والعراق والحجاز، جاء باعتباره رد فعل واضح على المؤتمر الذي عقد في نفس الوقت، وفي نفس المكان من قبل القوى الإسلامية الإقطاعية باسم (المؤتمر الإسلامي)، وقد أظهر بشكل واضح بأن القيادة الرجعية للمؤتمر الإسلامي (كانوا تحت ضغط موظفي وسلطات الانتداب البريطاني)، بذلوا مساعي شديدة في إعاقة إسهام المندوبين من القوميين العرب، وكانت هذه كما في حالة مساهمة عبد الرحمن عزام القومي المصري ومحمد سعيد ودرويش الليبي على شكل لائحة اتهام ضد السياسة الاستعمارية.

وهكذا فقد أصبح مفهوماً بأن القوميين العرب وعلى هامش المؤتمر الإسلامي قد نجحوا في تكوين الشكل المعبر العامل لهم (المؤتمر العربي). ومن النتائج الهامة لهذا الاجتماع هو التوصل إلى (الميثاق العربي) التي تضمنت صياغة لتشكيل دولة عربية مستقلة، والثاني هو التنسيق في النضال من أجل الاستقلال والنضال ضد كافة أشكال الاستعمار في شمال أفريقيا والشرق الأوسط. وعدا ذلك فقد تقرر التحضير لمؤتمر قومي باسم " مؤتمر الأمة العربية" ولغرض التحضير لذلك تأسست لجنة تحضيرية، وهذه اللجنة قررت أن يكون عام 1933 موعداً لعقد المؤتمر. وقاد المؤتمر السيد ياسين الهاشمي، كما كان السوري الشاهيندر موجوداً، ونبيه العظم وشكري القوتلي وشكيب أرسلان ورياض

الصلاح ومحمد عزت دروزة. وقد اختير الملك العراقي فيصل الأول كرئيس شرف للمؤتمر.

ومن أجل الاستباق : فهذا المؤتمر كان ينبغي عقده في بغداد والذي كان قد أستثار مصالح إمام اليمن، لم ينعقد ، وأحدى الأسباب الحاسمة لذلك كان في الضغط الشديد الذي مارسه الإمبريالية البريطانية على الأوساط الحكمة، لإفشال مشروع اللقاء القومي العربي المرتقب الذي كان ذا توجهات معادية للاستعمار، ولكن بنفس الوقت لعبت الخلافات في صفوف التحضير لعقد المؤتمر من المشاركين القوميين دوراً مهماً في فشل عقد المؤتمر. وهكذا فقد عبر العديد من القوميين السوريين والفلسطينيين في الشكوك (ولم يكن بعضها مخطئاً) بأن وجود الملك فيصل على راس المؤتمر القومي العربي هو في المقام الأول أداة من أجل تحقيق سيطرة الأسرة الهاشمية، الأمر الذي سوف يستغل مستقبلاً في ظل الدولة العربية الموحدة.

إن أسباب فشل عقد المؤتمر القومي في بغداد سيجعل من الممكن فهم وأدراك أي صعوبات أضيفت للجهود اللاحقة للمناوئين للفكرة القومية، بالإضافة إلى الفروق الاجتماعية والسياسية، إذ برغم هذا الفشل للفكرة القومية الذي كان له صداه المهم منذ أواسط الثلاثينات في أغلب الأقطار العربية، وقبل كل شيء في أواسط البورجوازية ومتقفي البورجوازية الوسطى، وفي أواسط الطلبة القوميين في أقطار المشرق العربي، كانت المحاولات قد بذلت لتأسيس منظمات جماهيرية غير قطرية والعمل الدعائي للفكرة القومية وتأسيس المنظمات والتأثير تدريجياً والتقريب بين الأقطار العربية على بعض الأصعدة الاجتماعية. و في المؤتمر التاسع للطب الذي عقد في القاهرة في كانون الأول- ديسمبر / 1933 الذي كان قد دعا إليه الطبيب السوري القومي عبد الرحمن الشابندر، ولاقى الدعم من زملاء مهنته، وأيضاً من جمعية "عصبة العمل القومية" وطالبت بخطوات عملية لتحقيق الوحدة العربية.

وفي نفس الاتجاه أيضاً كان تأسيس المؤتمر الطبي العربي، الذي أُنعقد للمرة الأولى في بغداد شباط - فبراير / 1938 وكذلك في القاهرة كانون الثاني - يناير / 1939، وحول محتوى وهدف هذه اللقاءات والمطالبات الصادرة عنها في إحداث التقارب الثقافي بين الأقطار العربية. وكواحدة من فعاليات القوميين العرب، وفي هذا الشأن نلاحظ جهود ومساعي القوميين السوريين والعراقيين والمصريين (ممثلين : قسطنطين زريق، فاضل الجمالي، عبد الرزاق السنهوري) الذين بدؤوا بالعمل لعقد مؤتمر الطلبة العرب في دمشق عام 1937 بدعم من ابن السعود.

وأولى ذرى المساعي العربية القومية باتجاه تحقيق الأفكار القومية تمثل بدون شك في عقد "المؤتمر العربي" في بلودان وهذا المؤتمر عقد بتاريخ 8 - 12 / كانون الثاني - يناير / ، 1937 ، (وبلودان بمصيف سوري بالقرب من دمشق)، وحضره أكثر من 400 من القوميين من كافة الأقطار العربية (باستثناء المغرب واليمن) وانعقاد المؤتمر على أساس المبادرات التي تقدم بها القوميون العراقيون والسوريون. وكان هذا مهماً في مجرى عمل الحركة القومية. وبحلول النصف الثاني من أعوام الثلاثينات، كان النضال الفلسطيني قد ألهب من أجل الحقوق الشرعية و ضد السياسة الموالية للصهيونية التي كانت الإمبريالية البريطانية تنتهجها وكان ذلك مبرراً وبعائناً حاسماً لكي لإنضاج وبلورة الحركة القومية.

ومن هنا نلاحظ بأن المؤتمر سواء كان قد أعد كشكل (لجنة الدفاع عن فلسطين) الدمشقية بقيادة نبيه العظم، أو بأن عموم سير المؤتمر، كانت تسيطر عليه مفهوم وفكرة "فلسطين هي قلب الوطن"، وهي العضو الذي يربط بين عرب آسيا وعرب أفريقيا، ويربط بين شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية ويمثل الطريق المطل على البحر. ومن خلال فلسطين يقيم العرب الصلات مع العالم المتحضر، ومع عالم التجارة. وعلى المرء أن لا يفكر بأنهم من خلال احتلال فلسطين بالقوة يعني أنهم سيتمكنون من سلبها". (16)

مع أن على المرء أن يلاحظ بما لا يقبل التباس، بأن قضية الشعب الفلسطيني هي قضية عادلة، فإن الرجعية العربية من القوميين الإقطاعيين، كانوا كالعائنين عن مسرح الجريمة حيال الجماهير العربية ليس إلا (بمعنى لا يمكن إغنائهم من المسؤولية حيال الأحداث اللاحقة - المترجم) كمبرر لتحقيق مصالح سياسة القوة، لذلك فليس هناك مجال للشك في الحماس الطاغي للقوميين العرب في النضال من أجل عرب فلسطين، فقد شددت من حركة العداء ضد الاستعمار لدى القوميين العرب.

ومن جهة أخرى فقد أوضح مؤتمر بلودان الخلافات وعدم التجانس الاجتماعي والسياسي للحركة القومية. وعلى الرغم من أن المجادلات والمساجلات لبعض الأوساط والأقطار العربية لم تكن بادية ومكتشفة للعيان ولكنها تشير على الأقل إلى حدثين في وجود مثل هذه التناقضات:

الأول : في الصراع على رئاسة المؤتمر، وكان المرشحان، الفلسطيني الحاج أمين الحسيني، ونوري السعيد العراقي، وقد رفضا المرشح العراقي القومي ناجي السويدي (وهو سياسي عراقي معادي للإنكليز ولنوري السعيد الذي كان على صلة وثيقة مع الهاشميين وفيصل) وقيادة المؤتمر تعبر عن ثقل المحافظين الذين كانوا على صلة وثيقة بسياسي القوى الإقطاعية ومن بين هؤلاء كان نوري السعيد وشكيب أرسلان، الذي كان يقف قريباً من الملك المصري، والشخصية المعادية للوفد المصري محمد علوبة، وأسقف كنيسة أرثوذكسية - اليونانية في حمص اكنازيو خورويكا Ignazio Hurraika ، ورئيس تجار بيروت عمر الداعوق وكذلك الحزب الفاشي (الحزب القومي السوري، وممثلي حزب الشعب السوري فؤاد مفرج.

الثاني : الجدل حول طلب سعيد الحاج ثابت (رئيس اللجنة العراقية للدفاع عن فلسطين) بإدانة الأنظمة الملكية العربية حول دورها السلبي حيال نضال العرب الفلسطينيين، وقد رفض هذا الطلب بعد إلحاح من الدرزي شكيب أرسلان.

ومؤتمر بلودان الذي واصل تطبيق الأفكار والممارسات القومية كان يمثل مؤشراً قوياً وأعبه الكثير من الفعاليات القومية التي كانت واضحة في مساعيها، وهو تحقيق مزيد من الخطوات للتقارب بين الدول العربية بهدف توحيدها أخيراً. والمؤتمر البرلماني الدولي الذي عقد في القاهرة من تشرين الأول - أكتوبر / 1938. وفي العام نفسه عقد مؤتمر المرأة العربية والطلاب العرب في الخارج، وتأسست لجان تطالب بوضع الأفكار للوحدة العربية، ومن تلك "جمعية الوحدة العربية" التي أسسها علوبة في القاهرة في نيسان - أبريل / 1930. وفي هذا المجال ينبغي الإشارة إلى أن التيار القومي ومنذ نهاية أعوام الثلاثينات (كان يمثلها عبد الرحمن عزام، مكرم عبيد، والكاتب المازني) وكان لهم نفوذ كبير في مصر. وفي مطلع الأربعينات ألتمز العديد من مثقفي البورجوازية الصغيرة ومن أبرزهم: ميشيل عفلق، زكي الأرسوزي، صلاح الدين البيطار، في حركة أطلقت على

نفسها (حركة البعث) التي تأسست في سوريا ولبنان. أما في المغرب، فقد أخفقت الأفكار القومية رغم الجهود التي بذلها القوميون في شمال أفريقيا مثل: الفاسي، اليزيدي، الوزاني، ومصالي الحاج، والثعالبي، وصلاتهم مع شكيب أرسلان، واتصفت موافقهم ببعض التردد.

وفي النصف الأول لأعوام الأربعينات، أنظمت قوى يمكن أن تحسب على البورجوازية والإقطاع، أنظمت على المساعي من أجل الوحدة في مرحلة مهمة. وكانت شخصيات من الأنظمة الإقطاعية البورجوازية في الشرق الأوسط ومتقفون قد بدأوا الآن بتقديم دعم (ولم يكن ذلك بدون موافقة مباشرة أو غير مباشرة من الإمبريالية) جهودهم في التوصل (في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية) إلى خلق رابطة للدول العربية وفي ذلك كانت الأقطار العربية في المشرق تتأرجح في تلك المرحلة في سياستها بين مختلف المجاميع البورجوازية والإقطاعية وكان ذلك واضحاً خصوصاً بين أنصار الأسرة الهاشمية، والأسرة السعودية الهادفة إلى السيطرة.

وفي عام 1943 طرح نوري السعيد بأسم النظام الإقطاعي الهاشمي في العراق وبموافقة الإمبريالية البريطانية فيما يسمى "الكتاب الأزرق" مشروع سورية الكبرى ومركزها العراق، هذا المخطط الذي يشكل من: العراق، سورية، لبنان، شرق الأردن، دولة موحدة وأقترح لها الملك الهاشمي. ولكن ذلك أصطدم بمشروع سورية الكبرى، ومؤسسة المسيحي أنطون سعادة الذي أسس عام 1932 الحزب القومي السوري، الذي كان متأثراً بالفينيقية، وتحت شعار "سورية، سورية، فوق كل شيء" وإن انبعثاً (عصر نهضة) سيقوم على الكنعانيين، الآراميين، الآشوريين، الكلدانيين، الأكديين، لتشكيل الأمة السورية الكبرى التي تمتد من طوروس وحتى سيناء، ومن البحر المتوسط حتى نهر دجلة. وفي ذلك لم تجد تلك الفكرة إلا دعماً قليلاً.

ومن جهة أخرى: تدخلت التناقضات الهاشمية الداخلية من خلال الأطماع السياسية في السلطة وقد شجعت الأوساط الإمبريالية أمير شرق الأردن عبدالله بن الحسين في محاولاته تلك. وهذه المطالبة بعرش الدولة العربية الموحدة التي يجري البحث عنها والنضال لتحقيقها لم تجد في أوساط القوميين العرب الدعم والمساندة المأمولة على الرغم من أن عبد الله كان عام 1937 قد تلقى الدعم من رئيس غرفة التجارة العربية - الفلسطينية فخري النشاشيبي (قومي رجعي) مؤسس حزب الأمة العربية بوصفه أداة لتحقيق مصالحه وأهدافه، وكان في تصورهم أن دولة عربية موحدة في سورية الكبرى وبقيادة فيصل بن الحسين سيلقى التأييد الشديد حتى في أوساط قومية أخرى كمصر على سبيل المثال، وقد أدى السعوديون من مقرهم في الرياض مقاومة شديدة لهذا المشروع.

وفي هذه الظروف من تصادم مصالح السلطة السياسية بين المجاميع الإقطاعية البورجوازية ذات النفوذ الواسع في الشرق الأوسط، ومن خلالها أثرت على الاتجاهات المعادية للاستعمار في سائر التيارات القومية الأخرى أكثر فأكثر، والآن يباشر ممثلوا الأوساط الحاكمة في مصر إلى اتخاذ المبادرات. واستناداً إلى حديث وزارة الخارجية البريطانية أنطوني إيدن أمام مجلس العموم البريطاني في 23/ شباط - فبراير/1943، والتي عاد فيها وكرر على المصالح البريطانية في تكوين كتلة من القوى الرجعية والدول في الشرق الأوسط، وفي 30/ آذار - مارس من نفس العام أعلن وزير العدل المصري صبري أبو علام "منذ أن تقدم السيد إيدن بإعلانه فأني قد أدليت بموقفي، وقد كان لي رأي وهو أن الأمر ينبغي أن يدرس رسمياً من الحكومات العربية. وفي الختام سيكون

مفضلاً لو قامت الحكومة المصرية بنفسها اتخاذ المبادرة الرسمية على هذا الطريق. وفي البدء يجب الأخذ بنظر الاعتبار رأي كل حكومة عربية من أجل استخلاص ما نهدف إليه. ثم أن على الحكومة المصرية أن تجتهد في أن تجمع كل وجهات النظر قدر الإمكان وتوحيدها". (17)

وبدعم العديد من القوميين السوريين واللبنانيين، أنظم زعيم الوفد مصطفى النحاس بناء على ذلك سلسلة من المحادثات مع ممثلي الأقطار العربية المشرقية، والتي في ختامها أدت إلى انعقاد مؤتمر الإسكندرية الذي استمر من 25/ أيلول - سبتمبر إلى 7/ تشرين الأول - أكتوبر / 1944، وساهم في أعماله ممثلون عن: سورية، شرق الأردن، العراق، لبنان، مصر، ثم الاتفاق على بروتوكول تأسيس الجامعة العربية. وفي 22 / آذار - مارس / 1945، أقرت تشكيل لجنة تحضيرية " المؤتمر القومي العربي " في القاهرة (حلف جامعة الدول العربية) والذي وقع عليه من قبل وفود: سورية، شرق الأردن، العراق، العربية السعودية، لبنان، مصر، ثم أنظمت إليها اليمن بعد شهرين من هذا التاريخ.

ومن جهة أخرى، كان قد أصبح واضحاً بأنه قد يستبعد رؤية نتائج تطبيق الأفكار والممارسات القومية، وكانت أيضاً العناصر التي تعمل للإقليمية (القطرية) تتنافس وتطرح تناقضات في الحركة القومية، وأنه من الممكن أن يكون العديد من المفكرين والعاملين في الحركة القومية كانت ترافقهم آمنيات ذاتية. ومن خلال تأثيرهم ومساعدتهم لإضعاف وحدة الصف والقوة الضربة لحركة التحرر القومية، وأن التنفيذ العملي للأيديولوجية القومية تظهر (وهنا تبدو وتتضح التناقضات في هذا التوجه) بأن القوى للإقطاعية والبورجوازية، والبورجوازية الصغيرة، ومن خلالهم يجري العمل من أجل تحقيق مصالحهم السياسية والاقتصادية في إضفاء النزاعات الاجتماعية الكامنة خلف الأفعنة أو في إزاحتها.

وهذا التطور جرى تطبيقه حيث تمكنت البورجوازية من السيطرة على حركة التحرر القومية، واحتلال مواقع وأمتيازات سياسية واقتصادية. ومن أجل تأمين توسيع هذه الأمتيازات، فأنها سعت ولا سيما الأفكار الأساسية في (الاندماج - التكامل القومي)، التي اشتدت كوسيلة لخلق علاقات (السلام الاجتماعي) في المجتمع والترويج لما كان رشيد رضا يعمل له دعائياً، وهي فكرة (التوافق والانسجام الطبقي) وكذلك الادعاء بوجود (طريق ثالث) بين الراسمالية والاشتراكية التي تلتحم بالنضال من أجل التحرير القومي بصورة لا تقبل الانفصام لتأمين وتحقيق آمنيات وآمال معظم الفئات والطبقات المضطهدة. وقد أوضح عبد الرحمن عزام الأمين العام للجامعة العربية بدون غموض والتباس، عندما أعلن في أواسط الأربعينات قائلاً " نحن نعترف بالفروق الطبقيّة، الأغنياء أو الفقراء، الضعفاء أو الأقوياء هم في درجة واحدة بنظرنا، ويقفون على درجة واحدة من نظامنا الاجتماعي، ونحن نرفض هذه الظاهرة الجديدة، صراع الطبقات الذي ينبغي علينا أن نجد له علاجاً فعالاً". (18)

وبالنظر لما يمثله لطفي السيد كأستثناء بين الليبراليين المصريين والذي قصد من خلاله الاشتراكي والبورجوازي الصغير سلامة موسى حيث قال " إن الاستقلال وحده لا يكفي، وإن أمة مستقلة متخلفة، سواء في حكوماتها أو هيكلها الاجتماعي، لا تحيا حياة كريمة". (19)، وهكذا يلاحظ بصورة عامة، بأن أيديولوجي وسياسي القوميين، كانوا من الساعين لإحداث (تغير) (للمسألة الاجتماعية) في وعي الجماهير. وعلى هذا الصعيد كان الزعيم الوفدي سعد زغلول قد تطرق إلى ما يشبه ذلك فيما يخص منع نشاط الحزب

الشيوعي المصري عام 1924 حيث أعلن : إنني لست مع أولئك الذين يتناقشون حول القضايا الاجتماعية، وأنا شخصياً لا ألتفت إلى الشيوعية أو أهتم بها، أو بالبلشفية، ولا أخشى فيما إذا كان كلاهما يتعايش مع حياتنا الاجتماعية، وليس لدى أي شعور بالخوف من ذلك". (20)

وموقف كهذا كان قد ظهر لدى القوى التوفيقية المتنامية من البورجوازية القومية وأحزابها حيال الاستعمار والرجعية المحلية، أبرزت بل بالأحرى فهي أكملته موضوعياً وجعلته أكثر ملائمة ومناسبة لفعاليات الديماغوجية الاجتماعية ومجاميع المتطرفين أو القوميون التقليديين كمنظمات الأخوان المسلمين ومصر الفتاة الفاشية، والحزب القومي السوري، وليس أخيراً كرد فعل على النفوذ المتزايد للأفكار الاشتراكية التي تلقته البورجوازية كصدمة. وهذا ما يمكن ملاحظته وبصفة خاصة بعد تأسيس الأحزاب الشيوعية في الأقطار العربية وكذلك ما له علاقة بالفعاليات العاجلة للاشتراكيين من البورجوازية الصغيرة من القوميون في سياستهم المعادية للاشتراكية التي تحولت إلى موقف أساسي لديهم. وقد كان يكفي هنا التأكيد على (حلف غير مقدس) مع الأيديولوجية الاستعمارية الأوروبية، وكذلك الرجعية الإسلامية واللاهوتيين المسيحيين، والإشارة إلى موقف شكيب أرسلان والثعالبي، التي تؤكد على "مقاومة البلشفية" لأن، وكما يذهبون فبأمثلتهم الديماغوجية بأن "الخطر الشيوعي هو أكبر من خطر الاستعمار". (21) ومثل هذه البيانات كانت سياسة مبرمجة للعديد من الأحزاب البورجوازية القومية في الأقطار العربية في تلك الأوقات وأيضاً نذيراً للمواقف القومية المعادية للشيوعية في الوقت الحاضر.

وفي الظاهر أن اتجاهات التطور هذه للبورجوازية الناشئة وللقوميين من البورجوازية الصغيرة في الأقطار العربية، كانت حتى في هذه الحالة المادية الملموسة، قد شملت بدون شك عموم ديالكتيك هذه الظواهر كقواعد، تعامل الشيوعيون معهم حسب التعاليم اللينينية، سواء من حديث شروطها وظروفها التاريخية، أو من خلال نسبية تقدميتها. وهكذا كان على الشيوعيين " اللقاء مع الحركة البورجوازية القومية التي تتحرك ضمن هذه الشعوب وما يدور فيها من حتمية، وأن تقف منها موقفاً تاريخياً". (22) وكان عليهم مسؤولية " الحذر والاحتراس بصفة خاصة وملاحظة واعتبار المشاعر القومية الحيوية الحساسة في أقطار وشعوب طال اضطهادها" و " وتقديم قدر من التنازلات ليتم بذلك تخطي وتجاوز أزمة الثقة والأحكام السريعة". (23)، إذ أن كل " حركة قومية بورجوازية لأمة مضطهدة لها محتوى داخلي ديمقراطي عام، هي مكرسة ضد الاضطهاد ونحن ندعم هذا المحتوى بالتأكيد". (24)، وأنها مسألة تقدمية " استيقاظ الجماهير من النوم الإقطاعي، والنضال ضد الاضطهاد القومي والوطني من أجل سيادة الشعب الذي هو ضمن واجبات ومسؤوليات الماركسيين في المشاركة بجميع القضايا القومية الحاسمة والمهمة، وهذه مسألة رئيسية في الواجبات السلبية ولكن لا يجوز أن تمضي البروليتاريا إلى أبعد من ذلك في دعم القضايا القومية، إذ تبدأ بعدها بالعمل الإيجابي والذي يؤدي إلى تقوية البورجوازية القومية". (25)

ثالثاً : الأفكار الاشتراكية :

في الصفحات الماضية، لاحظنا ولعدة مرات، ظاهرة أستهين بها في الأبحاث العلمية البورجوازية، أو أنها لم تلاحظ أصلاً: هي أن الحركة البورجوازية المبكرة في الأقطار العربية، وبصورة مشابهة لمثيلاتها من التيارات الأيديولوجية الرئيسية التي مر ذكرها

في مرحلة الصراع مع الاستعمار والتي يعود تاريخها إلى الأفكار الاشتراكية البورجوازية الصغيرة في القرن التاسع عشر، وهي في صلة لا تقبل الانفصام مع حركة النهضة المبكرة للبورجوازية العربية في من جهة تمثل مع سائر الأفكار التاريخية (وأيضاً الاشتراكية وبالدرجة الأولى الأفكار ما قبل الماركسية. وعلى الأغلب في الأقطار العربية المشرقية ومصر، ثم بدأت تشد إليها المثقفين العرب، ومن جهة أخرى فقد حملت النهضة الكثير معها والتي كانت باستمرار تعمل على تحضير الأرضية لمثل هذه الأفكار التي كانت تزيج بخطوات منتظمة ما يقابلها ويقف أمامها من عوائق أفكار دينية غامضة. ومن هذا الموقع وبتأثير الشخصيات المؤثرة على النهضة كالمصري رفاة الطهطاوي، الذي كان متأثراً بنظريات سان سيمون Saint Simon و برودون Proudhon .

وكانت المحاولات تبذل لتطوير الحركة الاشتراكية البورجوازية الصغيرة في الأقطار العربية بصورة منتظمة، وهكذا كان هناك ضمن المرحلة المعادية للاستعمار، ثلاث مراحل مختلفة، وفيما كانت المرحلة الثالثة متطابقة مع المهلة الزمنية التاريخية التي تبحث عنها.

والمرحلة الأولى بدأت في نهاية عقد الثمانينات من القرن التاسع عشر وأنتهت حوالي عام 1905 وهذه المرحلة تميزت ابتداء من خلال حملة الأفكار الاشتراكية المجهولين، ومن خلال تشخيصاتها غير الدقيقة، والمعنوية ذات الطابع التجريدي، وعلى الأغلب أفكار اشتراكية غير ماركسية، لفورير Fourir وأوين Owen، وسان سيمون، وبلانك Blanc، ولاسال Lassalle، وباكونين Bakunin، وكروبوتكين Kropotkin، ومن خلال عزل الحركة الاشتراكية الفتية عن الشغيلة وعدم تنظيمها وكذلك محدودية انتشارها بين قلة من المثقفين. وفوق ذلك يبدو أنها اقتصرت على بلدان المشرق العربي ومصر، رغم الموقف الأخير للأبحاث التي نشرتها الصحيفة القاهرية (المؤيد) عام 1890 استناداً إلى الاقتصاد السياسي لكارل ماركس حيث نشرت رسالة قارئ مغفلة التوقيع بعنوان " كيف تسعد البلاد وتثري"، تدافع فيها عن الاشتراكيين العرب، ولم يكن هناك نشر لنشاطات المفكرين الاشتراكيين.

ويجب أن نفترض بأن في أعوام الثمانينات كانت مثل هذه الأفكار قد وجدت المريدين والأتباع. وابتدأت تنشر في حزيران - يونيو/ 1889 في المجلة المصرية ذات النفوذ الواسع "المقتطف" و "الهلال" و "بتوءدة وحذر لمشروعهم الذي لما يزل ضعيفاً" فيما اشتدت حملة العداة للاشتراكية في المقالات التي كانت بعنوان " الغني والفقير" و " فساد مذهب الاشتراكية" و " ضرر الاشتراكية " التي كانت للشخصية المعادية للاشتراكية في مصر يعقوب صروف (وهذا من السماء اليهودية الشائعة في مصر - المترجم) . وإلى جانب ذلك، فالمقال (الذي نشر على أنه رأي عالم شريعة إسلامي) يعتقد أنه لجمال الدين الأفغاني الذي نشر في نفس العام مقالاً (باسمه الصريح) يوضح بصورة مبكرة، طبيعة الحملة المعادية للشيوعية من قبل المحدثين الإسلاميين.

في المرحلة الزمنية بين 1905/1907، وأكتوبر - تشرين الأول/ 1917، تأسست الشيوعية الدولية. وكانت الأحزاب الشيوعية في الأقطار العربية، هي المرحلة الثانية في تطور الحركة الاشتراكية البورجوازية الصغيرة. وهي متمثلة قبل كل شيء بتجاوز مرحلة (السماء المجهولة) من خلال تنظيمات سياسية للقوى الاشتراكية (تأسس الحزب الاشتراكي المبارك عام 1908) الذي لم يدم إلا فترة قصيرة، وكذلك النفوذ التدريجي المتزايد للأفكار الماركسية اللينينية على الحركة الاشتراكية العربية. وفي هذه المرحلة

فإن للأفكار اللينينية أهمية خاصة، والتي كانت على أثر يقظة شعوب آسيا وتطورهم في الحياة السياسية خلال الحرب الروسية - اليابانية، والثورة الروسية 1905، اكتسبت منها قوة شديدة". (26)

ويقرر رفعت السعيد " بأن ثورة 1905 كان لها صداها المهم في مصر " وإن هذا النفوذ لم يتحدد " على الانعكاس الروحي للهزة الثورية للشعب الروسي " بل وأيضاً بأوثق الأشكال المادية في التلاحم. (27)، واليوم لم يعد هناك شك بأن التساريين Zarisim (التسار هو لقب القيصر الروسي - المترجم) في الحرب الروسية - اليابانية، وكذلك الثورة الروسية لعام 1905 قد ألهمت بقوة وبصورة مباشرة أو غير مباشرة ممارسات المثقفين التقدميين في المشرق العربي، كما أنها شجعت الاشتراكيين على توسيع دعايتهم وقيادتها بصورة منتظمة، وأن تجد الأفكار الماركسية اللينينية لنفسها المكانة في أفكارهم.

وفي هذا المجال نلاحظ ازدهار نوعي وكمي في الحركة الاشتراكية العربية الفتية التي وجدت التعبير عن نفسها في أعمال المثقفين من البورجوازية الصغيرة : شبلي شميل، سلامة موسى، محمد حسنين المنصوري، ونقولا حداد، وأهميتها تكمن بالدرجة الأولى بالشجاعة والجرأة المدهشة ضد " الجنون والحماقات التي تروى عن الاشتراكية " . (28) وقيامها بالتصدي وبنشر ما تتعرض له الاشتراكية من تشويه للنضال الذي خاضته في هذا المجال.

إن القيمة الشاملة لفعاليتهم ينبغي أن تميز بشكل مادي ملموس، لذلك فليس من الممكن تجاوز أعمال النشر النشطة التي ظهرت لشبلي شميل وسلامة موسى للأفكار الماركسية اللينينية. وبينما كان شميل تحت تأثير أفكار الثورة الفرنسية ومادية العلوم التطبيقية لهكسلي Huxley، و ل. بوخنر L. Buchner، وهايكل Haeckel، ونظرية النشوء والارتقاء لداروين Darwin، وأخيراً سبينسر Spencer، وما بني على ذلك من مادية ابتدائية وملاحظات حيوية، بأن الاشتراكية تتحقق كنتيجة لعملية ارتقاء وتطور، وبذلك شارك سلامة موسى في موقفه بارتباطه مع الفابية (الاشتراكية الفابية) و يطرح المرء في الأخير الحساب (الفاتورة) بأن فاعلية كليهما (كما بالمناسبة أيضا المنصوري وحداد) كان عملاً فردياً ضل معزولاً عن جماهير الشغيلة. وهكذا كانت المحاولة اقرب إلى المبالغة في تقدير القدرات الحقيقية لهذه الشخصيات. وبرغم أن الظروف الاجتماعية الموضوعية المحددة لقدراتهم المعرفية والفاعلية السياسية العملية فإن الفعاليات الذاتية وجهود الطبيب اللبناني شميل تستحق الاحترام. وبسبب عدم الأحاطة التامة، أو سوء فهم للمادية التاريخية التي انتشرت وناضلت ضد المثالية الاشتراكية (اليتوبيا) Utopie ضمن ظروف الحملة المعادية للاشتراكية وشروط المثالية الدينية المتطرفة، لإعطاء أساس علمي، كانت المساعي الحثيثة للقبطي المصري سلامة موسى تستحق الذكر، والذي تابعته السلطات الاستعمارية البريطانية، والرجعية المصرية بالدعاية لأفكار الوحدة والتحرر الوطني الاجتماعي و " أول تحليل لطبيعة الرأسمالية وأساليبها في الاستغلال وصيد الأرباح". (29) في مصر، ونشرت ووزعت في الأقطار العربية.

وهذه المآثر تسري أيضاً بدون شك على الأفكار الاشتراكية للمنصوري وحداد مع أنه كان دوراً خاصاً بين الاشتراكيين في ذلك الوقت. وبصورة مختلفة عن شميل وموسى اللذان كانا يعملان بجدية من خلال نشر أعمالها في شرح وإيضاح وتوسيع الأفكار الماركسية - اللينينية في شمال أفريقيا والشرق الأوسط، وهكذا نجح المنصوري بإيصال كتاب أنجلز " تطور الاشتراكية من اليوتوبيا إلى العلمية" و "تاريخ المذهب الاشتراكي"

في عام 1915 الذي مثل أول محاولة لعرض القوانين الأساسية للماركسية وتاريخها في اللغة العربية.(30)

وإلى جانب ذلك قام معلموا المدرسة الثانوية في طوخ(مصر) بعمل ينطوي على الجراءة والشجاعة في ذروة العمل القومي بالدفاع عن الماركسية أمام اتهامات العناصر القومية بنفس الصفة الوطنية. وقد قام حداد وهو متأثر كثيراً بالحركة الاشتراكية في الولايات المتحدة الاميركية بقيادة ي. ديب E. Deb (بصرف النظر عن النوعية التي لا يرتقي لها الشك في فعالياته ودعايته ذات العمق للاشتراكية، وفعالياته السياسية المهمة التي بلغ شعاعها إلى أقطار المغرب).

ومن بين الاشتراكيين كان الشيخ العربي التفتازاني بدفاعه الذي لا هوادة فيه عن الأفكار الاشتراكية وهجمات الجماعات الإسلامية الرجعية، ولكن من خلال عجزه من التغلب على شكوكه حيال الحركة الثورية، تراجع عن مواقفه السياسية العملية المساندة للطبقة العاملة، وتحول إلى مثقف منعزل.

وثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى وتأسيس الشيوعية الدولية والأحزاب الشيوعية في البلدان العربية، هي التي تولت قيادة المرحلة الجديدة وفي نوعيتها في ذات الوقت في عملية تطور الأفكار الاشتراكية وهي بالدرجة الأولى اتصفت وتميزت بكون الأيديولوجية الماركسية، اللينينية قد بدأت تشكل وعياً وتنظيماً داخل حركة التحرر. وفي هذا المجال يؤكد المستعرب الفرنسي جال بيرك Jacques Berque، " بأن حركة العمال البريطانيين كان لها دورها المهم لعبته في العلاقات بين المغرب، ومصر، وبلدان المتروبول، وكذلك في بناء القيادات الوطنية. فمنذ نهاية الحرب العالمية الأولى، مارست الدولية الثالثة دوراً يتسم بالأهمية البالغة، فقدمت للقسم الأعظم من هذه الشعوب النموذج الفعال " وأنهم قد وضعوا الأساس من أجل أن تكون الماركسية - اللينينية والاشتراكية أكثر قبولاً للشعوب المسلمة وهي حقاً كذلك".(31)

إن انتصار الطبقة العاملة الروسية في أكتوبر / 1917 وكذلك الانتفاضة الثورية للبروليتاريات الأوروبية الأخرى كانت تنطوي على شكل ملموس من توسع للأفكار الماركسية اللينينية وحركة التحرر العربية. وكان الجنود الجزائريون في الجيش الفرنسي قد قاموا خلال انتفاضة البحارة الفرنسيين عام 1919 في أوديسا، أو في خلال استخدامهم الارغامي ضد جمهورية الإنقاذ المجرية، وأقاموا الصلات مع ثوريين روس ومجريين.

وقد تعرف العرب الذين كانوا مرغمين على الخدمة في الجيش التركي، والذين كانوا في فترة أسرهم لدى الجيش الروسي، على الأفكار الثورية والماركسية اللينينية، وكان عدد كبير من المثقفين العرب والعمال الذين أقاموا وعاشوا في ألمانيا مثل : حسين الرحال، وهو من الشيوعيين العراقيين الأوائل) وعاصروا ثورة نوفمبر - تشرين الثاني، وعند عودة هؤلاء إلى أوطانهم كانوا ينظمون إلى أية فعالية ثورية مع أبناء بلادهم بل ويكونون هم أبرز عناصر تلك الفعاليات الثورية وللبروليتاريا، وكانوا يستخدمون(بدرجات متفاوتة) الأفكار الماركسية اللينينية في مجرى ذلك النضال، وأن قسماً منهم قرر الانضمام إلى الخلايا الماركسية، بل أنهم في حالات عديدة قاموا بأنفسهم بتأسيسها (بعد ثورة أكتوبر) التي نهضت في الأقطار العربية. كما في الجزائر على سبيل المثال عام 1919. وفي غضون ذلك تطورت مجاميع وأحزاب البورجوازية الصغيرة الاشتراكية التي تأثرت بالأفكار الماركسية اللينينية، وهكذا تأسست عام 1922 على يد مثقفين

لبنانيين تقديمين حلقة " الصحفي التائه" ومنها تأسس بعد بضعة سنوات حزب الشعب بمساهمة فعالة من الشخصية الاشتراكية آ. يعقوب.

وفي عام 1921 نجح الاشتراكيون المصريون (وبينهم سلامة موسى، وحسني العرابي) بتأسيس الحزب الاشتراكيون المصريون، وشيهاً له تأسس في العراق عام 1931 جماعة اشتراكية من البورجوازية الصغيرة باسم (جماعة الأهالي) ماركسيون وفابيون، متعاطفون مع الدولية الثانية واعتبروا أعضاء فيها.

وفي سنوات العشرينات والثلاثينات كانت قد نهضت أخيراً في أغلب الأقطار العربية الموجودة (من خلال عملية تنوير سياسية وأيديولوجية وتنظيمية معقدة) من منظمات اشتراكية - بورجوازية صغيرة. وهنا فقط بالشارة إلى المقال الذي طرحه الحزب الاشتراكي المصري الذي تقدم بطلب الانتماء إلى الشيوعية الدولية عام 1922، وعندما تقدم الحزب الشيوعي المصري في نضاله ضمن حركة التحرر الوطنية.

خلق تأسيس الأحزاب الشيوعية في شمال أفريقيا والشرق الأوسط، شروطاً جديدة من أجل تنظيم وتوسيع مطرد للتعالم الماركسية اللينينية في حركة التحرر العربية. وسواء بتأثير التضحيات والالام في النضال من أجل التحرر القومي والاجتماعي للشعوب العربية، التي نال بموجبها الاحترام والاعتراف بين صفوف الشغيلة، أو بواسطة العمل الأيديولوجي الذي ساهم فيه الشيوعيون العرب والتي بموجبها تمكنت الأفكار الماركسية اللينينية من ترسيخ مواقعها في صفوف الطبقة العاملة ضمن حركة التحرر، وفي هذا الوضع كان عملهم النظري والدعائي مهماً.

ومن خلال ترجمة الأعمال الكلاسيكية للماركسية اللينينية إلى اللغة العربية، ونشر العديد من الوثائق المهمة للحركة الشيوعية العالمية، وكذلك نشر أعمال لينين لاسيما: " الدولة والثورة" و " مالعمل" و "اليساريون الراديكاليون"، و "مرض الطفولة الشيوعي" ودراستها، وكان كل ذلك في الظروف الصعبة والمعقدة، يعد مساهمة رائعة من الشيوعيين العرب في الدعاية للأيديولوجية البروليتارية ضمن حركة التحرر.

إن الأعمال النظرية لممثلي الأحزاب الشيوعية العربية الأوائل (خالد بكداش، ونقولا الشاوي، ويوسف سلمان يوسف(فهد)) بصدد موضوعات مثل الشيوعية والوطنية، الإسلام أو المسألة القومية، لم تمثل مواقف الشيوعيين إزاء مشكلات مهمة من حركة النضال التحرري الوطني والقومي، بل وأكثر من ذلك، كونها مساهمة ثمينة لتطور الأفكار الماركسية اللينينية.

وفي هذا المجال ينبغي الإشارة أيضاً إلى فعاليات الشيوعيين العرب في النضال ضد الخطر الفاشي الدايم. وكمثال ساطع على ذلك، كان "مؤتمر مكافحة الفاشية" الذي عقد في بيروت للفترة من 6-8 أيار - مايو / 1939 بمبادرة من الشيوعيين السوريين واللبنانيين. وأدار هذا اللقاء أنطوان ثابت رئيس عصابة مكافحة الفاشية والذي حضره أكثر من 200 من ممثلي المنظمات السياسية والنقابات والاتحادات الثقافية والرياضية. وقد أثبت هذا اللقاء بصورة مقنعة، سياسة التحالفات الماركسية اللينينية للشيوعيين العرب.

وإلى جانب فرج الله الحلو وخالد بكداش، كان هناك أعداد كبيرة من وطنيين وقوميين سوريين ولبنانيين، وممثلين لجماعات فكرية مختلفة من بينهم قريب للبطريك الماروني. وقد تلقى المؤتمر رسائل وإشارات مهمة من قادة الحركة الوطنية السورية مثل شكري القوتلي وناظم القدسي ولطفي الحفار وفائز الخوري وجمعية التمدن الإسلامية واتحاد المرأة السورية، وكذلك من الوطنيين والقوميين الليبيين الذين يعيشون في دمشق كلاجئين.

وأخيراً، كانت الأعمال السياسية والفكرية للشيوعيين العرب التي يمكن وصفها بأنها أبرزت ممثلي البورجوازية العربية من القوميين، وبصفة خاصة المراكشيين : الفاسي، اليزيدي، الوزاني. والتونسي بورقيبة، وآخرين كانوا على صلة مع الأحزاب الشيوعية كالحزب الشيوعي الفرنسي، ومساهمة القائد المصري رمضان، والشاذلي خير الله أحد قادة الحزب الدستوري الذي كانت له مساهمته في العصبة المعادية للإمبريالية. ودون شك فإن هذه الظواهر شواهد على النفوذ المتزايد للأيديولوجية الماركسية اللينينية في حركة التحرر العربية في تلك الفترة.

ومما يستحق الملاحظة، أن ذلك كان يمثل في نفس الوقت يمثل احتدام النضال الأيديولوجي في الأقطار العربية، إذ طرحت نفسها بوصفها واحدة من المركبات الجوهرية للحملة المحتشدة للقوى المعادية للشيوعية في مختلف الأشكال والألوان ضد النفوذ المتزايد للاشتراكية العلمية، و ضد من يحمل هذه المعتقدات والمتعاطفين معها، وبنفس الوقت شن هجمات مركزة، صعدت فيها قوى اليمين القومي، وشخصيات روحية رجعية، ومروجين للأفكار الاستعمارية. وبصفة خاصة في هذا الوقت حيث كانت هناك قوى إصلاحية اشتراكية من جماعة الدولية الثانية، وكذلك في مطلع أعوام الثلاثينات وإيديولوجيون فاشيون قد بدأوا الهجوم على الأفكار الاشتراكية.

وتحت ظل هذه الظروف المعقدة سياسياً وأيديولوجياً، والتي كان من جملتها أيضاً مشكلات التطور للأحزاب الشيوعية العربية، أتخذ الاشتراكيون من البورجوازية الصغيرة موقفاً ينطوي على تناقض فائق للعادة، وعلى الرغم من المحاولات العديدة لتنظيم نفسها، وعلى الرغم من أنها في حالات كثيرة وبجهود ذاتية سعت للقارب من الماركسية اللينينية وإعلان مواقفهم النظرية والسياسية، ولم تنجح أغلب القوى الاشتراكية البورجوازية الصغيرة في تجنب اتخاذ المواقف من القضايا الحاسمة المعادية للشيوعية. وفي هذا المجال فإن مغادرة سلامة موسى وآخرين من الاشتراكيين غير الماركسيين للحزب الاشتراكي المصري عام 1922 عندما قدم الحزب (وقد مر ذلك) طلباً للأنضمام إلى الشيوعية الدولية، وأيضاً الاشتراكي المصري عصام الدين حنفي ناصيف الذي كان متأثراً بعمق بالحركات الثورية في ألمانيا)، كان قد أكد تعاطفه وتأييده للأفكار الماركسية اللينينية، ولكنه لم ينجح أخيراً في أن يكون (اشتراكياً من الضمير) ونبذ ترده وقلّة الثقة حيال الطبقة العاملة والتغلب على توجهات المتقنين لديه، والاشتراكي التونسي الترادنيوني (الترادنيونية حركة نقابية بورجوازية - المترجم) وداعية حقوق المرأة طاهر حداد(32) الذي لم يكن بوسع التمييز والإدراك بشكل دقيق وفنوي، وليس هناك "بواعث لتبرير الصراع الطبقي".(33)

ومن أجل تمكين الروابط الأيديولوجية لأغلب الاشتراكيين من البورجوازية الصغيرة مقابل مبادئ الاشتراكية الإصلاحية والقوميين، والتناقضات السياسية / الأيديولوجية العميقة في منظماتهم، وفي تشنتهم (وفي ذلك يكفي أن نتذكر مصير جماعة الأهالي)

ومهدت الطريق إلى ما يشبه التحام الحركة البورجوازية الصغيرة - الاشتراكية مع الجناح القومي في حركة التحرر القومية، وبرغم أن هذا ببطء وتؤدة من الصفات المميزة في حركة في حركة البورجوازية الصغيرة وكذلك في وجودها الذاتي والموضوعي وشروط وظروف الفاعلية والتأثير، وفي نفس الوقت ظل المصير الذي لا يمكن تفاديه كما هو ثابت، بأن الاشتراكية البورجوازية العربية الصغيرة كانت قد قامت بمحاولة للخروج من مواقفها المتناقضة من خلال أفكار الوحدة والاشتراكية داخل حركة التحرر، وليس أخيراً، من إدانتها بمعاداة الشيوعية، وباهتزاز الثقة مع الطبقة العاملة قد أدت إلى فشل تلك المحاولات. وهكذا كان الشيوعيون العرب في فعاليتهم الصعبة، ذات التضحيات، يقفون في الصفوف الأمامية للحركة الوطنية التحررية لشعوبهم وفي النضال الأيديولوجي المركب، وفي النضال المعادي للرأسمالية أقوى باستمرار وفي المقدمة اعتبار مصالح القوى غير البروليتارية.

دوامش البحث

1. Lenin, W.I : Werke, Bd.5, Berlin 1959, S. 408
2. Lenin, W.I., Werke, Bd.8, Berlin 1959, S. 206
3. حول نضال الأحزاب الشيوعية العربية، سنجده في مبحث لاحق
4. Marx, K, / Engels, F , : Werke, Bd, 21 : Berlin 1962, S. 305
5. Marx, K, /Engels, F, : Werke, Bd, 21, Berlin 1962, S. 305
6. Der Islam und der Prinzipien des Staates. Unttersuchung über Kalifat und Regierung im Islam. Von Ali Abdulraziq(Aus züge) . In : Schacht, J. : Der Islam mit Ausschluß des Qorans. Tübingen 1931, S. 184. F.
7. Höpp, G, : Zur Rolle Internationaler Panisamoscher Organisation in der Befreiungsbewegung der arabischen Völker, In : Asien, Afrika, Lateinamerika 1969, S. 159, ff.
8. Marx, K, Engels, F : Werke, Bd, 1, Berlin 1961, S. 388

9. Robbe, M. : Nationalismus in Befreiungs- Kampf der Völker
Asiens und Afrika in Deutsche Zeitschrift für Philosophie,
Berlin, 6/1968, S. 750

10. Markov, W. : Wege und Formen der Staatsbildung in Asien
und Afrika seit dem zweiten Weltkrieg (Thesen) in Zeitschrift für
Geschichtswissenschaft, Berlin 6L 1970, S. 728

11. Bruntenc, K. : Voprosy ideologii nacionalno osvoboditez
nomdvizennii. In : Kommunist, Moskva, 18/ 1466 , S. 38

12. Khouri, R. Position de la question national dans le monde
arabe. In Abdel Malk. A. L'Asie Arabe Contemporaine. Paris 1970, S. 95 f

*. هذه شهادة مهمة جداً تبرىء الحركة القومية العربية من الأتجاهات الظاهرة أو
الكامنة العرقية منها أو الدينية الطائفية. المترجم

13. Markow, W : a.,a., o. S. 743

14. Hucric, C. , Al : Primute de i, arabisme. In : Abdsl Malek A :
a. A. O. , S. 203

15. Ebeid, M., : Les Egyptiens sont des Arabes. In Abdel Malek .
A : a., a., o., S. 206

16. Motagne, R., : Reaccion arabe contre le Sionismus (le
Congre,s de Bloudane) . In Entretiens sur l'evolution des Pazu de
civilisation arabe, Bd. Paris 1939, S. 47

17. Laissz, M. : Du Panaarabisme a la Ligue arabe, Paris 1948, S.
104 , F

18. Azzam, A.R. : La Ligue arabe et l'immunité mondiale, In : Abdul
Malik, A, a, a, o, S. 208

19. Moussa, S., : Intellectual Currents in Egypt. In Middle
Eastern Affairs, New York. 2/ 1951, S. 74

Moustafa, A.A. 20
1971 ص 74
مصطفى تاريخ الفكر السياسي في مصر الحديثة القاهرة

21. Oriente Moderno, Rom, X11, S. 39.f

22. Lenin, W, I: Werke, Bd 30, Berlin 1969, S. 147
23. Lenin, W. I. : Werke Bd 31, Berlin 1959, S. 139
24. Lenin, W. I. , : werke, Bd 20, Berlin 1961 : 415
25. Ebenda, S. 19f
26. Lenin, W. I. : Werke, Bd.15, Berlin, 1962. S. 216
27. Musa, S. : Ishtirakiyya, 1913, In Hanna, S. S. A. / Gardner, G. H. (eds) : Arab Socialism, Leiden 1969, S. 275
28. Musa, S. : Ishtirakiyya. 1913, In , Hanna; S A Gardner; G: H. Socialism, Leiden, S. 275
29. السعيد، رفعت: الفكر الاشتراكي المصري في مطلع القرن العشرين في الطليعة عدد 1968/10 القاهرة ص63
30. Levin, Z, I, : Socialisticski idej na Arabskom Vostokey naeale xx veko, In : Narody Azii, Afrika, Moskva 5/ 1968, S. 65
31. Berque, J , : Islam et Sozialismus, In Revue de l, Institut Soziologie, Bruxelles, 1967, S. 202 f
32. نشر طاهر حداد عام 1930 كتابه الجدير بالاهتمام " إمرءتنا في الشريعة والمجتمع " وهذا الكتاب من بين كتب أخرى طرحت بقوة قضية تحرر المرأة هي قضية اجتماعية أكثر مما هي قضية دينية، وقد منع الكتاب، وطرده مؤلفه من جامعة الزيتونة.
33. Haddad, T. : La Tunisie et la Socialisme. In : Adel Malek, A: a. A. O. , S. 238